

## طَرَائِفَ حَوْلَ الصَّيْدِ

يطيب لى أن أبدأ حديث الطرائف هذا بما سمعته أذنأى ورأته عينأى مما أُلخِص الحديث عنه فى صور ثلاث: إحداهما فى جنوبى السودان، وتأتيتها فى غابتن فى الجمهورية الهندية. وثالثتها فى فيلم خاص بصيد النمر شاهدناه فى الهند.

وقبل أن نأخذ فى الحديث عن هذه الصور الثلاث نذكر لك - رحمك الله - أن الحيوان المفترس يفتك بالإنسان حين يضطره الجوع إلى ذلك، وهو أمر لم تزل سنة الحياة ماضية به. ومنظر الذئب الجائع يخرج من الغابة لخطف طفل من الطريق أمر غير مستنكر ولا عجيب. وفى أيامنا هذه لم يزل النمر الأكل للبشر ماثلاً فى الهند، والأسد المفترس ماثراً فى إفريقيا وهما - كالعهد بهما - ماضيان على الطريق نفسها فى الفتك بالإنسان.

ولقد انقرضت شيئاً فشيئاً الحيوانات الكبيرة الثديية على الرغم من قوتها العظيمة ولم تستطع مقاومة القوى الطبيعية التى استطاع الإنسان أن يقهرها باستخدامه ذكائه، وتنمية قدراته على مواجهة تلك الحيوانات التى كانت تنافسه فى السيطرة على الأرض. وهذا أصبح تقدم الإنسان ساحقاً لا يعرف الهوادة فى تتبع تلك الحيوانات، فاحتفت الرزاقة والفيل من شمال وادى النيل فى بداية العصور التاريخية على الرغم من أن الأسلحة التى استعملها الذين عاشوا فى العصور الموغلة فى القدم لم تكن إلا أسلحة بدائية. ومع ترقى أسلحة الصيد إلى صورهِ أسد فتكاً وأيسر استعمالاً، امتهدت السبيل

للقضاء على الوحوش في شمالى وادى النيل. وما لا ينبغي تجاهله أن الملوك المفرمين بالصيد في بلاد الشرق القديم، كانوا على أقوى الأسباب في القضاء على الفيلة الآسيوية في سهول أعالي الفرات منذ بضعة آلاف من السنين. وكلما ازدادت مقدرة الإنسان على إزعاج الحيوان المستوحش، أذن ذلك بانقراض نوعه، وليس يعلم أحد إلا الله تعالى ماذا تكون النتيجة بعد ذلك.

كذلك ذكر الأستاذ العلامة «جيمس برستد» في كتابه «انتصار الحضارة» وباستصحاب هذا المعنى أستطيع أن أقرر واثقاً أن هذا النظر كان من أقوى الأسباب التى حملت الحكومات المختلفة في السودان الشقيق على وضع قيود للصيد، تبقى على كثير من الحيوانات الثديية في غابات الجنوب.

### في جنوب السودان:

لأول ما وليت وزارة الأوقاف في سبتمبر ١٩٥٣، قمت بأولى رحلاتي إلى السودان الشقيق، ومعى المرحوم الصاع صلاح سالم، وأخى الأستاذ جمال السنهورى، وفريق من الأشقاء السودانين عسكريين ومدنيين. وقد قضيت في جنوب السودان فترة زرت فيها أكثر محافظات الجنوب.

ولم يكن الأزهر الشريف قد تخلى عن صحبتي في كل رحلة قمت بها في أسيا وإفريقيا وأوروبا، فكان حسن الدنكاوى الذى يعتزى إلى قبيلة كبيرة في جنوب السودان والذى كان قد تلقى دروسه في الأزهر يرافقنى في هذه الرحلة، ويبدل لى من معرفته بأحوال بلاده وعاداتهم ما كان معاوناً لى على أن أبلغ من هذه الرحلة ما أريد. وليس يحتاج إلى تنبيه ما كانت تعج به الغابات في الجنوب من مختلف الوحشيات، وما كان يتراءاه السائرون في مختلف طرقها من أحوال الناس هناك في عرى كامل سواء فيه الرجال والنساء، سائرين في الطرقات أو قابعين في الغابات، فإذا جاء الليل اجتمعوا

رجالاً وساءً وفتياناً وفتيات يسمرون أو يرقصون في العراء. ولقد كان مما يثير أشد العجب أن ترى من نساء أوربا وأمريكا كميزات يعملن متطوعات مع البعثات التبشيرية هناك. فإذا الواحدة منهن تبدو لك في الطريق وفي كتفها البندقية وفي يدها الكتاب، وهي منفردة أحياناً ومع بعض رفيقاتها أو رفيقاتها أحياناً، على الرغم مما يتهدد السائرين في هذه المواضع من أخطار. وقد كانت الطرق ممهدة تسير فيها السيارات كأحسن ما يكون السير ليناً وسلاسة. وما أكثر ما رأينا ويرى السالكون في هذه الطرق، سودانيات صغيرات يحملن سلالاً مملوءة بالبيض، ويعرضنها على السائرين وهن قائلات: «تبعي جنى الدجاج»؛ وهو على ترى تعبير عربى أصيل، يكشف في أنفس الجنوبيين عن عروقهم المصرية التي تتمثل لهم في آباء مجاهدين، ذهبوا إلى تلك الجهات في الأيام الخوالي ثم تزوجوا من أهلها وأسلموا، ولا تزال أنسابهم يعيش هناك حتى يوم الناس هذا.

وعلى ذكر جمعيات التبشير التي أثرت تأثيراً واضحاً في جنوب السودان والتي أتت أكلها على ما يبدو في هذه الأيام، أقرر هنا - لله به للتاريخ - أنني حين عدت من تلك الرحلة رفعت إلى رئيس الدولة ائتمناً تقريراً تضمن النتيجة التي استخلصتها، ورأيت في ضوء هديها أن أول واجب علينا في تلك الظروف إيفاد بعثات إسلامية مزودة بما يحتاج إليه أهل الجنوب، لكي نستطيع أن نحقق من هذا الطريق خيراً نتطلع إليه الشقيقتان مصر والسودان. وذكرت أن في وزارة الأوقاف وقفاً كبيراً على الجيش التركى، يمكن تحويله إلى الإسهام بأوفى نصيب في هذا المجال من أجل هذه الغاية الشريفة، وليس هناك ما يمنع تحويل غرض هذا الوقف لا من ناحية الواقع ولا من ناحية الشريعة، وذلك أن الجيش التركى لم يعد جيشاً إسلامياً بسحق هذا الوقف في الحدود التي أرادها الواقف، ثم إن الشريعة لا تمنع

تحقيق الغرض الشريف الذى تحراه الواقف بتحويل وقفه من جهة برّ أرادها إلى جهة بر أولى منها. ولئن كنت لم أبلغ من ذلك ما أريد لأسباب فوق طاقتى، لقد كان ذلك لأمر لا يعلمه إلا علام الغيوب.

### الأسد شرطى مرور:

لست أنسى فى تلكم الرحلة ليلة بدأنا فيها السير بعد منتصف الليل فى تلكم الغابات، وبينما نحن نتمشى على طريق من الطرق الضيقة المشقوقة وسط الأشجار، إذا صوت هائل يخرج من جوف الغابة يكاد يصم الآذان، ألقى فى روحنا جميعاً خوفاً ملك علينا مشاعرنا واستبدّ بحواسنا. فوقفت السيارة، وأخذ السائق يحرك مصابيحها فى سائر الجهات لأنه يعرف أن الوحشيات تخشى ضوء المصابيح. وانطلق أحد المرافقين يقص قصة شهدناها فيقول: لقد كانت تمرّ فى مثل هذا الوقت على إحدى الطرق فى هذه الغابات سيارات، وفيهم كانت رحلتها تضى إلى غايتها آمنة، وقف فجأة سائق إحدى السيارات ثم لفت القوم الذين معه إلى منظر رهيب، لا قيل للسيارات معه بالحركة، ونظر القوم إلى أمام فإذا جثة هائلة لأسد لا يعنيه من أمر الناس شئ، خرج من الغابة ثم تقدّد وسط الطريق ووجهه إلى الغابة وجنبه الأيمن إلى مقدم السيارة فذهب الخوف بالركب كل مذهب وأزعج فى نفوسهم الأمن والسكينة، لأنهم لم يكونوا قد ألفوا هذا المنظر من قبل، ولا هم كانوا قد توقعوه فى هذه الرحلة.

ولكن سائق السيارة كان أثبت جنائناً بما كان معه من طول التجربة فى مثل هذا الموقف، فلم يظهر عليه ما يشير إلى أنه خائف أو منزعج. فراح يوجه مصابيح السيارة حول الأسد وهو رابض فى مكانه لا يعير هذه المصابيح اهتماماً، على شدتها وسرعة حركتها. وأخيراً شاءت له كبرياؤه أن

يحول رأسه ناحية السيارة في اللحظة التي صادفت فيها عيناه أضواء المصباح، فإذا في كلتا عينيه الشمس في رائعة النهار، تمام استدارة وقوة إشعاع. ثم تحرّك في كبرياء بادية وتناقل شديد وزهو لا يبالي شيئاً، متجهاً إلى العاية حتى إذا جاوز جانب الطريق وقف وكأنه شرطى المرور يأذن للمار أن يسير. واقتنص السائق الفرصة التي سنحت، فاندفع بأقصى سرعة وأشدّ ضوضاء بسيارته حتى تجاوزه. ثم نظر ركاب السيارة بعد ذلك إلى وراء فرأوا ملك الغابة وسيد الوحوش يعود إلى ما كان عليه من قبل اخذاً الطريق مرة أخرى على المجتازين.

لقد كنت وأنا أستمع للزميل الكريم - ولعله الأستاذ محمد أمين المحامى - أتمثل أبيات المتنبي في أسد نهر الأردن، وأنصور التقاء عيني الأسد بمصباح السيارة فلم أكن أفهم وصف المتنبي في هذا البيت إلا حين رأيت مصباح سيارتنا في عيني أسد الجنوب، فذلك حيث يقول أبو الطيب رحمه الله:

|                              |                            |
|------------------------------|----------------------------|
| أمعفر الليث الهزير بسوطه     | لمن أدخرت الصارم المصقولا  |
| وقعت على الأردن منه بليّة    | نصدت بها هام الرجال تلولا  |
| وردّ إذا وردّ البحيرة شارباً | ورد الفرات زثيره والنيلا   |
| متخضب بدم الفوارس لابس       | في غيله من لبديته غيلا     |
| ما قوبلت عيناه إلا ظننا      | تحت الدجى نار الفريق حلولا |
| في وحدة الرهبان إلا أنه      | لا يعرف التحريم والتحليلا  |
| يطأ الثرى مترفقاً من تيهه    | فكأنه آمن يحسّ عليلا       |
| ويرد عفرتة إلى يافوخه        | حتى تصير لرأسه إكليلا      |

على أنه إذا كان أسد الجنوب قد أدخل الطريق للركب يمضى بسلام، فإن أسد الأردن كان شرّاً فاتكاً شديد الإضرار بخلق الله. على ما صوره

أبو الطيب في قصيدته التي انطوت على قصة خلاصتها: أن قائد جيش شجاعاً يدعى «بدر بن عمار» كان قد أهاج أسداً عن بقرة افترسها، فإذا الأسد ينسب على كفل فرسه فيعجل ابن عمار عن سل سيفه فيضربه بسوطه، ثم يدور الجيش بالأسد فيقتله. فيقول في هذا المعنى أبو الطيب قصيدته العصاء التي روينها منها هذه الأبيات.

### وصاة صياد:

روى لى هذه الوصاة مهندس مفضال لا يحجل ولا يتخيل، وقد عاش في جنوب السودان حيناً من الدهر مشرفاً على النيل. ولولا الثقة به محافظاً ثم وزيراً، لا ستشعرت حرجاً شديداً في تدوينها للناس في هذا الكتاب:

قال المهندس المفضل: أنبأني صائد متجول في الغابات جنوب السودان أن الأسد وزوجته قلما يفترقان، فهما معاً، سائرين في الغابة أو رابضين في العرين. فإذا رأى الصائد هذين الزوجين في غابة صيد فليبدأ بقتل الأسدة فإن الأسد إذا رآها صريعة لم يرد على أن يتلفت ذات اليمين وذات الشمال، ثم يمضى لطيته لا يلوى على شيء. ولكن الصائد إذا بدأ بقتل الأسد، فإن الأسدة لا تتركه حتى يقتلها أو تقتله.

وأما الصورة الثانية فقد كانت في عام ١٩٦٥ حين استجبنا دعوة كريمة من حكومة الهند الصديقة للمشاركة في الاحتفال بتتصيب سيدنا محمد برهان الدين سلطاناً على طائفة البهرة.

ولما انتهت الأحفال، هيأت لنا حكومة الهند برنامجاً لزيارة مختلف المراكز الصناعية والزراعية. وكان في ضمن هذا البرنامج رحلة في الغابات القرية من «بومباي»، وأخرى في الغابات البعيدة عنها. وكانت قد جرت عادة

القوم هناك على سة الرحلات هذه فكانوا يخرجون إلى الغابات للصيد والاستحمام فيصطادون الطباء والأياثل، وأحياناً قليلة يصطادون النمر الذي يطلقون عليه اسم الأسد.

ولقد أذكر أنا التمسنا النمر أو الأسد ليلة كاملة ثم يوماً كاملاً في موكب من السيارات مع أبناء السلطان وإخوته ثم نعود من كل تلك الرحلات بأسوأ مما يرجع به العائد بخفى حين، لأن العائد بخفى حين عائد بشيء كيفما كان هذا الشيء، فأما عودتنا نحن فقد كانت بتعب شديد وسهر طويل، وصر على مشاق بالغة لا يدركها الوصف ولا يبلغها البيان، وذلك أن للقوم هناك طريقة رائعة في صيد النمر أو ما يسمونه الأسد على الفرق بين الحيوانين شكلاً وموضوعاً، فهذه يعمدون إلى أعلى شجرة في لغابة فيمهدون في رأسها بين الأغصان مجلساً مستوراً، لا يرى ما بداخله من قريب أو بعيد، على أن يكون المجلس ضيقاً لا يتسع لأكثر من ثلاثة أشخاص، يرتقون إلى ذلك المجلس بسلم بين الصعوبة شديد التعقيد. وقد كنت أحد هؤلاء الثلاثة ليلتين متواليتين دون طائل، على ما في البقاء في هذا المكان من مشقة لا يتصورها إلا من يتحمل أموراً لا يسعل أو يعطس أو يتكلم أو يدخن سيجاراً أو يتحرك في المكان حركة مهما تكن ضعيفة فإن النمر دقيق الحس يشمه ويرى ويسمع، فلا يخفى عليه من حركات الصائد شيء. وهى صورة بغير شك لا يستطيعها إلا القليل من خلق الله. ولعل لا أزال إلى اليوم كلها تذكرت في مجلسي في ذلك المكان تذكرت به ما لا قبل لإنسان بالنصر عليه لولا ما وضع الله في فطرتنا من غريزة حب الاستطلاع. وبيان ذلك أن القوم لكى يصيدوا النمر يجلسون هذا المجلس الذى وصفت، وعلى مقربة منه يربطون عجلأ فيجىء النمر في خطو خفيف وحذر شديد لينال من فريسته ما يريد. فينتهر الصائد الفرصة فيطلق عليه رصاصة

أو اثنتين أو ثلاثاً متتابعات فيصرعه، ثم يحملونه إلى حيث يسلخون جلده الذى يعتبر من أغلى أنواع الجلود وأعظمها قيمة. وكثيراً ما يكون النمر أشد مكرّاً من الإنسان الذى يتربص به، فيجئ إلى فريسته بعد أن يمل المتربصون وينصرفوا، فيأكل منها ما شاء له النهم ثم ينصرف في سلام. وقد ملّ المتربصون به طول الصمت وقسوة الانتظار وخشونة المكان.

وأما الصورة الثالثة فقد دعنا إليها دار عرض للسينما عرضت علينا فيلماً خاصاً بصيد النمر. وفيه أن نمرًا جائعاً في غابة تتبع غلاماً كان يركب النورج ويدرس القمح، وفيما هو يدور في حلقاته المفرغة، خرج النمر من الغابة خفيف الخطو خفة القط حين يتهيأ لخطف قطعة من اللحم، ثم قبض على الصبى من الخلف واحتمله إلى داخل الغابة وافترسه. فاجتمع أهل العلامة يتقبلون العزاء فيه في غيظ كظيم. وفي مشهد تال من مشاهد الفيلم رأينا القوم وقد استداروا بالمنطقة التى هو فيها، وكلما قصد إلى مكان يهرب منه رأى الناس يهجهجون به فيعود، وهو شديد الحذر من الناس، فكلما لاح له جماعة منهم تراجع.

وفي المشهد الأخير بدا صائد ماهر فصوب إلى النمر بندقيته وأطلق عليه رصاصات ألقتة صريعاً على الأرض. وبهذا فرح أهل الصبى وجيرانهم لأنهم أدركوا ثأرهم، وشفوا غيظ صدورهم.

بين أعرابي وكلب:

كان في مدينة البصرة من مدن العراق اعرابي خرف يدعى «عروة ابن مرثد» ويكنى أبا الأغر. وكان قد نزل في بني أخت له من قريش، ينزلون في بعض سكك المدينة. وجاء رمضان وخرج الرجال إلى ضياعهم وأعمالهم، وبقي النساء يصلين في المسجد، فلم يبق في الدار إلا كلب يعس



طالبًا شيئًا يطعمه، فهو يتشمم هنا وهناك لعله يقع على ما يرد جوعته. والقوم في رمضان رجالاً ونساء ممسكون عن شراب وطعام. ورأى الكلب بيتاً فابتدره بالدخول إليه، وانصفق الباب عليه في حركة عنيفة. وسمع بعض الإماماء الحركة. فظنوا أن لصاً دخل الدار، فذهبت إحداهن إلى أبي الأغر تستغيث به، وليس في الحى رجل غيره. فلما أنبأته ذلك قال: وماذا يبتغى اللص منا؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت، والدار<sup>(١)</sup> خالية والباب منصفق. ثم راح الأعرابي الحرف يخاطب الكلب يحسبه لصاً: هيه يا ملأمان<sup>(٢)</sup>، أما والله إنك بى لعارف، وإنى بك أيضاً لعارف، فهل أنت إلا من لصوص بنى مازن؟ شربت حامضاً خبيثاً حتى إذا دارت الأقداح في رأسك منتك نفسك الأمانى فقلت: إلى دور بنى عمرو، فإن الرجال خلوف والنساء يصلين في مسجدهن، فليس للسرقة وقت أنسب من هذا الوقت. سواءً والله، ما يفعل هذا الأحرار. لبس والله ما منتك نفسك، فاخرج، وإلا دخلت عليك فصرمتك منى العقوبة، لأيم الله، لتخرجن أو لأهتمن عليك هتفة مشرمة يلتقى فيها الحيان فيصير بذلك أمرك إلى تباب. ولئن فعلت، لتكونن أشأم مولود.

فلما رأى الكلب لا يجيبه، جنح إلى اللين فقال: اخرج يا بنى وأنت مستور إنى والله ما أراك تعرفنى. ولو عرفتنى، لقد قنعت بقولى. واطمأنتت إلى نصحى. أنا عروة بن مرثد أبو الأغر المرتضى خال القوم، وفى منزلة العزة والكرامة بينهم، لا يعصوننى فى أمر. وأنا لك بالذمة كفيلاً خفير، لا يمسك ضر ولا يلحق بك أذى. فاخرج وأنت فى ذمتى. وعندى وعاءان من تمر

(١) البيت من الدار: موضع البساتين خاصة بخلاف الدار فإنها أعم وأشمل.

(٢) لنيم.

أهداهما إلى ابن أختي البار الوصول، فخذ أحدهما وانتبهه حلالاً من الله تعالى ورسوله ﷺ.

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق، وإذا سكت وثب يريغ<sup>(١)</sup> الخروج، فتهانف<sup>(٢)</sup> الأعرابي ثم قال: يا آلام الناس وأوضاعهم، إذا قلت لك البيضاء والسوداء تطرق وتسكت، فإذا سكت عنك، تريغ المخرج.. والله لتخرجن - بالعفو عنك - أو لأدخلن البيت عليك بالعقوبة.

فلما طال وقوف الأعرابي، جاءت جارية من إماء الحى فقالت: أعرابي مجنون، والله ما أرى في البيت شيئاً. ودفعت الباب، فخرج الكلب يشتد، وحاد عنه أبو الأغر مستلقياً على قفاه من الخوف وهو يقول: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفاني منك حرباً.

خير من جليس السوء:

لا يجهل أحد من أهل المعرفة بكرام الرجال «مالك بن دينار» في زهادته وتقواه، وحرصه على تجنب مساخط الله وتحصيل مرضيه. وقد كان معه كلبه يجلس إليه ويأنس به كلما فرغ من صلاة طويلة خاشعة يتناجى فيها ربه، أو فرغ من تلاوة متدبرة يتناجى فيها ربه<sup>(٣)</sup>. وكان الرجل -رضى الله عنه-

(١) يريد.

(٢) تهانف تصاحك في سخرية واستهزاء.. ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة يصف امرأة:

ولقد قالت لأتراب لها ذات يوم وتعرت تبسرد

أكسبا ينعثن تبصرنى عمركن الله أم لا يقتصد

فتهانفن وقد قلن لها حنن في كل عين من تود

(٣) كان أسلافنا يفرقون بين عبادة الله بإقامة الصلاة وبين عبادته بتلاوة القرآن، فيقول زاهدنا «كنت إذا أردت أن أناجي ربي دخلت في الصلاة، فإذا أحببت أن يتناجى ربي أخذت في قراءة القرآن».

مِلَّةَ العيون مهابة والصدور جلالة، فلم يكن واحد يستطيع أن يجترئ فيسأله عن شأن من شئونه الخاصة إلا أن يكون أخًا له في الله، أو معيَّنًا له على حق، أو مريدًا من مريديه ينشد عنده المعرفة. وكان من إخوانه جعفر بن سليمان الذي جمعت وإياه خَلَّة الدين والزهادة، فسأله: ما تصنع بهذا الكلب أبا يحيى؟ قال أبو يحيى مالك بن دينار: أنس به في الخسوة والجلوة، وهو في شرِّ أحواله خير من جليس السوء.

وليس ينبغي لك رحمك الله أن ترتاب في صحة هذا النظر وصدق هذه الكلمات، فما أكثر صرعى جلساء السوء، يمدون للطيبين من جلسائهم في أسباب الحديث، ويستثيرونهم عما يعلمون أنَّ طاقة لهم بالسكوت عنه، مدحًا أو قدحًا، وتعديلًا أو تحريجًا، إرادة إحقاق حق وإبطال باطل، فإذا أهل السوء هؤلاء ينطلقون ينمون أو يختلقون، حتى إذا فرغوا مما أرادوا وبلغوا ما أحبوا، مضوا إلى دورهم أو قصورهم طيبة بذلك أنفسهم قريرة به أعينهم، وقد أزعجوا نفوسًا آمنة، وأخربوا بيوتًا عامرة. ومن هنا اثر عقلاء الناس من أهل الدنيا وأبرارهم من أهل الدين أن يتأوا عن الناس، فيعتزلوهم أو يخالطوهم على حذر شديد، حتى لقد قال الإمام الشافعي رضى الله عنه فيها يذكر الرواة:

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة      وليتنا لا نرى مما نرى أحدا  
إن الكلام لتهدى في مرائبها      والناس ليس بهاد<sup>(١)</sup> شرهم أبدا

## سبيل إلى رضوان الله:

وإذا كان مالك بن دينار رضى الله عنه قد آثر صحبة الكلب على جليس  
السوء، فمضى يأس به ويكرم صحبته، فإن شيخاً آخر جليل القدر من جلة  
شيوخ الحديث كان يرى في إكرام الكلب - مشتغلاً به عن لقاء كرام  
الأضياف - سبيلاً إلى مرضاة الله والظفر بحسن ثواب الآخرة. ففي مناقب  
الإمام أحمد بن حنبل أنه بلغه نبأ شيخ من أهل الحديث على مسافة بعيدة  
الشقة، وعنده من حديث رسول الله ﷺ أحاديث ثلاثية السند، وبين رايها  
وبين رسول الله ﷺ ثلاثة رواة فقط وهذا النوع من الحديث يحرص العلماء على  
الظفر به بالغة ما بلغت المشقات في الحصول عليه. فرحل الإمام التقى  
الورع أحمد بن حنبل إلى ذلك المحدث الجليل ليأخذ عنه هذه الأحاديث،  
راكباً إليه خطر الطريق وشدة المشقة. فلما بلغه رآه يطعم كلباً وقد أقبل  
عليه في رفق بالغ وعناية شديدة، وسلم فرد الشيخ عليه السلام، ثم استمر  
مشتغلاً بإطعام الكلب غير ملتفت إلى ضيفه الكريم، فوجد في نفسه ابن  
حنبل ما يجد مثله في مثل هذا التصرف. ولكنه ظل واقفاً في مكانه، حتى إذا  
فرغ الشيخ من طعمة الكلب التفت إلى الإمام يقول له: كأنك وجدت في  
نفسك إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك. قال الإمام: نعم. قال الشيخ:  
حدثني أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه، أن  
النبي ﷺ قال: «من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله تعالى منه رجاءه يوم  
القيامة فلم يلج الجنة». وقد قصدني هذا الكلب يبتغى طعاماً عندي، فخفت  
أن أقطع رجاءه، فيقطع الله رجائي في يوم القيامة. قال أحمد: هذا الحديث  
يكفي. ورجع من حيث أتى وقد قطع عشرات الأميال في طرق مخوفة  
ومسالك وعرة، قانعاً بهذا الحديث النبوي الشريف.

## سبيل إلى عز الدنيا:

ويجوز في طريق هذا المعنى الكريم حديث عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وكان أسهر الأجواد في الإسلام، كما كان أشهرهم في الجاهلية كعب بن مامة وحاتم الطائي. فقد خرج عبد الله بن جعفر ذات يوم إلى صيعة له، فنزل على نخيل قوم في الطريق إليه ليستريح، وكان في النخيل غلام أسود جهده العمل وكده الجوع، فأنه أبعدته ثلاثة أقراص من الخبز، وفيما هو يشرع في تناول غدائه قصده كلب فرمى إليه بقرص فأكله ثم عاد فرمى إليه بالثاني فأكله ثم لم يزل الكلب يذهب ويحىء حتى رمى إليه الغلام بالثالث فأكله. كل ذلك وعبد الله بن جعفر ينظر ويتعجب ثم عاد بالغلام فقال له: كم قوتك كل يوم؟ قال: هذه الأقراص الثلاثة. قال: فلم أرب لك بها على نفسك؟ قال: هذه أرض نبت بأرض كلاب وقد جاءني هذا الكلب من مسافة بعيدة حائماً فكرحت رده. قال عبد الله: فماداً أنت صانع اليوم؟ قال: أطوى يومي هذا.

فالتفت عبد الله بن جعفر لأصحابه الذين يرافقونه إلى صيعة وهو يقول لهم: تلومونني على سخائي، وهذا الغلام أسخى مني، وقد رأيته بأعينكم وسمعتم بأذانكم ما يؤكد هذا الذي أقول.

ثم إنه - رحمه الله - سترى هذا الغلام فأعنته، ثم اشترى تلك الصيعة فوهبها له.

وهكذا يتراءى إكرام الكلب بين خير الآجلة للمحدث الجليل جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وبين خير العاجلة للغلام الأسود الرقيق في حرية عزيزة وتقدير سريفي وغنى عريض، قد يجمع الله تعالى به له بين شرف الدنيا والآخرة جميعاً، والله ذو الفضل العظيم.

### من عجيب الإلهام:

إن الله رب العالمين، فهو لا يضيع من خلقه مخلوقاً حيواناً أو إنساناً أو طيراً أو حشرة تدب أو تدرج على وجه الأرض، فأعطى كلاً من مخلوقاته إلهاماً تقوم به حياته وتنتظم عليه شئونه. ومن آيات ذلك حديث يرويه الرواة عن الخليفة المعتصم العباسي، وقد أوغل ذات يوم في الصيد وحده فبصر بقانص يصيد الطباء، فاستدناه فقال له: حدثني أعجب ما رأيت في صيدك. فقال: خربت المزارع التي تردها الطباء لشرب. فلما هت بالورود شمت الخريق، فصدرت عطاشاً، ثم عادت من غد، فانصرفت أيضاً عطاشاً، ثم عادت في اليوم الثالث بأجمعها وقد جهدها العطش، فلما شمت الخريق انصرفت عن الماء، ورفعت رءوسها إلى السماء، فأتاها الغيث كأفواه القرب، فما انصرفت حتى رويت وخاضت في الماء.

### ظبي أدرك ثأره:

قال ياقوت في معجم الأدباء: حدث موسى بن هارون قال: كنت بحضرة الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر، فاستأذن عليه الزبير بن بكار، فلما دخل عليه أكرمه وعظمه، وقال له: إن باعدت بيننا الأنساب، فقد قربت بيننا الآداب وإن أمير المؤمنين أمرني أن أدعوك وأقلدك القضاء. فقال له الزبير ابن بكار: أبعد ما بلغت هذه السن، ورويت بأن من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين أتولى القضاء! فقال له: فتلحق بأمر المؤمنين بسر من رأى. فقال له: أفعلى. فأمر له بعشرة آلاف درهم، وعشر نخوت ثياب، وظهر يحمله ويحمل ثقله إلى «سر من رأى» فلما أراد الانصراف، قال له: إن رأيت يا أبا عبد الله أن تفيدنا شيئاً نرويه عنك ونذكرك به. قال: نعم، انصرفت من

عمرة المحرم. فبينما أنا بأثاية<sup>(١)</sup> العرج، إذ أنا بجماعة مجتمعة، فأقبلت إليهم، وإذا برجل كان يقتنص الظباء، وقد وقع ظبي في حبالته فذبحه، فانتفض في يده، فضرب بقرنه صدره، فنشب القرن فيه، فمات. وإذا بفتاة كأنها المهابة. فلما رأت زوجها ميتاً شهقت ثم قالت:

|                           |                              |
|---------------------------|------------------------------|
| يا حشف، لو بطل، لكنه أجل  | على الأثاية ما أودى به البطل |
| يا خشف جمع أحشائي وأقلقها | وذاك يا خشف لولا غيره جلل    |
| أضحت فتاة بنى نهد علانية  | وبعلها في أكف القوم محتمل    |
| وكت راغبة فيه أضن به      | فحال من دون من الرغبة الأجل  |

ثم شهقت فماتت. فلما رأيت أعجب من الثلاثة: الظبي مذبوح، والرجل جريح والفتاة ميتة.

فلما خرج قال الأمير محمد بن عبد الله: أى شيء أودنا من الشيخ؟ قالوا: الأمير أعلم. قال: قوله: «أضحت فتاة بنى نهد علانية» تعنى ظاهرة، وهذا حرف لم أسمعه في كلام العرب قبل اليوم. أما أن الذى أخذناه من الفائدة في قولها «أضحت فتاة بنى نهد علانية» تريد ظاهرة أكثر عندى مما أعطيناه من الحياء والصلة.

ما أشرف هذه الأخلاق!

حدثت ثقة عن رجل من أهل همدان أن الثلج كثر ذات عام حتى لجأت إلى ضياعه قطعان من البقر الوحشى وأسراب من الحمر والظباء، فاعتبرها عائدة به، فأعادها، امرأ غلمانة أن يقدموا لها القضييم والعلف إلى أن ينحسر الثلج. فإذا انحسر خلوا سبلها وتولوا حمايتها حتى تصل إلى أبعد موضع

(١) مربع به وثب ندسه حبه وعسرون مرسعاً - معجم البلدان

من العمارة، فلم يمس وحشية سوء من أذى أو جوع حتى رحلت سالمة كما وفدت لائذة.

وبما يدل على اعتزاز العربى بحماية الجار - إنساناً كان أو حيواناً - ما يروى عن مجير الجراد حارثة بن حنبل الطائي، فقد وقع الجراد في أرضه، وبدا أول ما وقع بالوقوع حول خبائه، فخرج أهل الحى ليصيده، فركب الرجل فرسه وأشرع إليهم رحمه وهو يقول لهم: ما كنت لأمكنكم من جارى، ولم يسمع القوم إلا أن انصرفوا، فأمن الجراد في جوار ذلكم الرجل الشريف، وفي هذا يقول معاوية التغلبي مفتخرًا:

ومنا الكريم أبو حنبل      أجار من الناس رجل الجراد  
وزيد لنا ولنا حاتم      غياث الورى في السنين الشداد

وكما تضعف الوحشيات عن احتمال البرد، تضعف كذلك عن احتمال المطر الثقيل.

ورعا دام الغيث أياماً فجرت به الأودية وتتابع السيل وتلجت الصحراء حتى عم ذلك معاقل الأروى، وكناس الطباء ومرابض المها ومفاحص القطا ومسالك الطير في الهواء، قتلجاً هذه الوحشيات إلى العمارة حتى تؤخذ قبضاً، وتكون في استسلامها وضعف من يقدر عليها، كالطير الذى يقول عنه على ابن الجهم:

وحى رأين الطير في جنيتها      تكاد أكف الغانيات تصيدها

مخايل جبروت مبكر:

ومن أطرف الطرائف ما حدث به الثقات عن أبى العباس السفاح، وكان شديد اللهج بالصيد ناشئاً ومكتهلاً. فقد خرج ذات يوم متزهاً في فصل



الربيع وكان في صحبته كثير من أهل بيته، وجماعة من خاصته، وعدة من مواليه فبسط له هنالك ودعى بغداده، وحضر مأثدته وعمومته وكبار قومه، وبينهم أبو جعفر المنصور، فبينما هم كذلك يأكلون ويشربون ويتضحكون إذ طلع عليهم أعرابي، فوقف بإزائهم بعيداً عنهم، ثم سلّم بالإشارة عليهم، فأشار إليه أبو العباس السفاح أن يدنو، فدنا حتى قرب منه، فأمره أن يجلس فيصيب من طعامه، فجثا الرجل على ركبتيه بعد أن سلّم فأكل أكل حانع منهو مقرر.

فلما انتهى أقبل على أبي العباس يقول له: بأبي أنت وأمي يا حسن الوجه، ألا انتسيت إليّ حتى أعرفك؟ فتسبه ثم قال: رجل من اليمن من عبد المدائن فقال: أنت والله شريف، ولكنني والله أسرف منك قال أبو العباس: فهلا انتسيت إليّ حتى أعرفك؟ قال: بيت قيس من بني عامر قال أبو العباس: شريف إلا أنني والله أسرف منك قال الأعرابي: كلا ما بنو الحارث بأسرف من بني عامر إلا أن تكون عارضتني في تسبك، قال: ما عارضتك ورن عبد المدائن لأحد طرق. قال: فممن أنت إذن؟ قال: من بني هاشم. قال: فأنت إذن من رهط رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: شريف والله لندي لا إله إلا هو، قم قرابة ما بينك وبين هذا الملك الذي يدعى أبا العباس؟ قال: قريبه. قال: بأبي أنت وأمي أهو لحمي؟ قال: هو هو قال الأعرابي: فإني محدثك حديثاً عنه فاكتمه عليّ قال: أفعل. قال: رأيته وهو غليم يتعد يرمى في عرض بالحميمة فيجمع بين نبله في مثل راحتي هذه، ثم ينصرف عن عرضه فيمر بالطائر فيصرعه بسهمه، ثم لا يلبث أن يذبحه بسيفه ويقطعه ويصرم له ناراً، أو يستعبر ناراً قد أضرمت أهلها لغدائهم، فيرمي بصيده عليه، رامياً بطرفه إليها لئلا يغلبه أحد على ما فيها،

ثم يأكله، نتفأ بريشه مع شظية من لحمه حتى يأتى على ما فيه ما يشركه  
عشير ولا خليل. فصاح به المنصور: اسكت يا أعرابي فضأ الله نأجذك، إنما  
تخاطب أمير المؤمنين. فقال أبو العباس: ما هذه المعاشرة يا عم؟ رجل تكلم  
على الأنس والانبساط وقد تحرم بها وأكل طعامنا فأرعبته وأوهنت منته  
وقطعت حديثه، تكلم يا رجل.

فلما سمع ما قال عم أمير المؤمنين قال: وكنت أرى فى هذا الفتى أمارات  
خير تدل على أنه سيملك ما بين لا بينها<sup>(١)</sup>. قال: وما تلك؟ قال: لين  
الجانب والصفح عن الجاهل، والبذل للائل، مع مركبه الكريم وموضعه من  
النبوة. فضحك أبو العباس حتى فحصى الأرض برجليه من حسن ما تخلص  
لأعرابي مما وقع فيه. ثم وصله وكساه وحمله.

### التسامح مع الشعراء:

وبقدر ما كان أبو العباس السفاح متجبراً غليظ القلب، كان واسع  
الصدر حليماً مع المحتاجين. دخل عليه ذات مرة أبو دلالة الشاعر فأنشده.  
فقال له: سل يا أبا دلالة. فقال: كلب صيد. قال: ويلك، وماذا تصنع  
بكلب؟ قال: أمرتني أن أسأل فسألت، والكلب حاجتى. قال: هو لك. قال:  
ودابة تكون للصيد. قال: ودابة لأبى دلالة. قال: وغلأم يركبها ويتصيد  
عليها. قال: وغلأم. قال: وجارية تُصلح لنا صيدنا وتعالج طعامنا. قال:  
وجارية قال أبو دلالة: كلب ودابة وغلأم وجارية، هؤلاء عيال لابد لهم من  
دار. قال: ودار. قال: ولابد من غلة وضبعة هؤلاء. قال: قد أقطعناك مائة

(١) سيكون ملكه ساملاً واصل الكلمة فى المدينة لأنها سمع بين حرتين دونى حجارة سود. ثم  
حرب على أمراء ناس فى كل بنده ولو لم تكن بين حرتين - الأساس.

جريب عامرة ومائة جريب غامرة. قال: وما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: هى التى لا نبات فيها. قال أبو دلامة: فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسمائة جريب فى فياق بنى أسد. قال فقد جعلنا لك المائتين عامرة، فهل بقى لك شىء؟ قال: أقبل يدك. قال: أما هذه فدعها. قال أبو دلامة: والله ما منعت عيالى شيئاً أهون عليهم فقدأ من هذه.

الحمى أضرعتنى لك:

يعرف أهل النظر أن الحرب ضربان: حرب تختلس فيها نفوس الأبطال، وأخرى تختلس فيها أنفس الحيوان. ويعرفون أن من أدوات الحرب ما يصلح للصيد. وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ذات يوم عمرو بن معد يكرب الزبيدى عن السلاح. فقال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له. قال: ما تقول فى الترس؟ قال: هو المحن الدائر، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول فى الرمح؟ قال: أحوك، وربما خانك فانقص. قال: فالثقل؟ قال: منابا تخطئ وتصيب. قال: فما تقول فى الدرع؟ قال: مثقله للراجل، متعة للراكب، وإنها - مع ذلك - لحصن حصين. قال: فما تقول فى السيف؟ قال: هبالك، لا أم لك يا أمير المؤمنين. فضربه عمر بالدرة وقال: بل لا أم لك أنت. قال: الحمى أضرعتنى لك<sup>(١)</sup>.

دعاء مستجاب:

أخرج الإمام البخارى وغيره أن أعرابية كانت تخدم نساء النبى ﷺ وكانت كثيراً ما تتمثل بهذا الشعر:

(١) يريد أن الإسلام وفاء حمية الجاهلية فمعها أن يعصب لنفسه، كما منع الحمى المحرم أن يرد عنداء عليه.

ويوم الوشاح من أعاجيب ربنا على أنه من ظلمة الكفر نجاني  
وسألته أم المؤمنين عائشة: ما هذا البيت الذي أسمعك تنشدينه؟ فقالت:  
شهدت عروسًا تجلى إذ دخلت مغتسلًا لنا وعليها وشاح فوضعت، فجاءت  
الحدياة فأبصرت حمرة فأخذته، ففقدوا الوشاح فاتهموني به، ففتشوني  
فتفتشًا لم يدع من جدى موضعًا إلا ناله، فرفعت رأسي وأنا أقول:  
«يا غياث المستغيثين أغثنى وبرئتي»، فما أقمتهن حتى جاءت الحدياة بالوشاح  
فألقته بينهم. فلو رأيته يا أم المؤمنين وهن حولي يسألنني أن أجعلهم في حل،  
فنظمت ذلك لنفسى في هذا البيت من الشعر، فأنا أنشده لئلا أنسى النعمة  
فأترك شكرها.

ومما يتدرج تحت هذا العنوان ما أسنده الحافظ النسفى إلى حماد  
ابن سلمة أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء في زمانه قال: أصابتني  
خصاصة فجئت إلى بعض إخواني فأخبرته بأمرى، فرأيت في وجهه الكراهة،  
فخرجت من منزله إلى الصحراء فصليت ما شاء الله، ثم وضعت وجهي على  
الأرض وقلت: «يا مسبب الأسباب ومفتح الأبواب ومحبيب الدعوات وقاضى  
الحاجات اكفنى بحلالك عن حرامك، واغننى بفضلك عن سواك».

فوالله ما رفعت رأسي حتى سمعت وقعة بقرى فإذا حدياة طرحت كيسًا  
أحمر فأخذت الكيس فإذا فيه ثمانون دينارًا، وجوهرة ملفوفة في قطنة مندوفة  
فبعت الجوهرة بمال عظيم وفضلت الدنانير فاشتريت بها عقارًا وحمدت الله  
عز وجل على ذلك.

وفي الرسالة القشيرية عن شبل المروزى أنه اشترى لها بنصف درهم  
فاستلبته منه حدياة فدخل شبل مسجدًا يصلى فيه أسفًا على ما ضاع منه  
وقد فوض أمره إلى الله عز وجل. فلما رجع إلى منزله قدمت له زوجته لها

فسألها من أين لكم هذا اللحم؟ قالت: تنازعت حدأتان فسقط هذا اللحم منها فقال شبل: الحمد لله الذى لم ينس شبلا وإن كان سبل ينساه.

المرء يعجز لا المحالة<sup>(١)</sup>:

قصد شاعر - رهقته الحاجة - باب بعض الكبار من ذوى السلطان  
'بتغاء معونه، ولكن الحجاب الثقيل حال بينه وبين الدخول عليه، فكان إذا  
رجع إلى داره خالى الوفاض، وازن بين سدة حاجته وبين بذل ماء وجهه، ثم  
راح ينشد قول الشاعر:

والله لولا صيبة صفار      كأنما وجوههم أقمار  
درداق<sup>(٢)</sup> لى لهم دنار      بائليل إلا أن تسب نار  
لما راي ملك حيار      بيايه ما وضع النهار

وفيم الرجل يشد هذا الشعر في صوت حزين يستجلب رثاء السمات إذ  
سمعه جار له، فسعى إليه يستشده التعر مرة بعد أخرى، ثم سألته عما به،  
فأنبأه قصته وبذله ماء وجهه، وحجبه عمن يملك سداد عوزه وتميس كربته.  
فقال الجار الحكيم: إنك شاعر لبيب، وتعرف أن فلاناً هذا الذى وضع فيه  
أملكك وتشدت عنده حاجتك مفرى بالصيد ألقا له لا يكدر يعبه، فلو صنعت  
سعرًا ترفع به حاجتك، ثم سألت الصياد أن يمنحك بعض ما يصيد من طياء  
وثعالب وأرانب، لكان في ذلك الخير الذى أرجوه لك إن شاء الله. فصنع  
لرجل أبياتاً من الشعر، واستمنح الصياد بعض ما يصيد، ثم جاء بها إليه  
قائلًا له: هذا الشعر وهذه الطياء والثعالب والأرانب، فأمر بأن يكتب

<sup>(١)</sup> مثل يعجز به عن الإنسان في موجهه استدان قد يعجز ود الخ أى عجزه أنجح.

<sup>(٢)</sup> نصغر من لافغان وإلن واساء.

الآيات في رقاع وأن تشد الرقاع في أذناب بعض وآذان بعض، على أن يراعى الشاعر خروج الأمير إلى الصيد، فإذا خرج كمن له في مظانه، ثم أطلقها. فلما ظفر بها استبشر، ورأى تلك الرقاع، ووقف على ما فيها من شعر رائق - فزاد ذلك في طربه، واستطرف الرجل واستلطفه، وتنبه على رعى ذمامه، ثم أمر بطلبه فأحضره، فبذل له من الخير ما فتئ يتمناه وفوق ما كان يتمناه.

### الأئمة من قریش:

كان الإمام الشافعي - رضى الله تعالى عنه - جالساً بين يدي الإمام مالك بن أنس يتلقى عنه تلميذاً له، فجاء رجل فقال للإمام دار الهجرة: إني رجل أبيع القمارى وإني بعت في يومى هذا قمرىاً فرده على المشتري وقال: قمريك هذا لا يصيح فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح، فقال مالك للرجل: طلقت زوجتك فلا سبيل لك عليها - وكان الشافعي يومئذ ابن أربع عشرة سنة - فقال للرجل: «أيا أكثر صياح قمريك أم سكوته؟» فقال: لا بل صياحه أكثر. فقال الشافعي: لا طلاق عليك، امض لزوجتك فهي لك حل. فلما انتهى الأمر إلى مالك دعا بالشافعي ثم قال له: «يا غلام من أين لك هذا؟» فقال: منك أنت فقد حدثتني عن الزهري عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن، عن أم سلمة: «أن فاطمة بنت قيس قالت: يا رسول الله إن أبا جهم ومعاوية خطباني». فقال ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه». وقد علم رسول الله ﷺ أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح وقد قال لا يضع عصاه عن عاتقه على المجاز. والعرب تجعل أغلب الفعلين كمدأومته، ولما كان صياح قمري هذا، أكثر من سكوته - جعلته كصياحه دائماً.

وإذا رأيت - رحمك الله - أن العجب يستبد بك، فاذكر أن السافعي عربي قرشي يلتقى مع رسول الله ﷺ في عمود النسب الشريف، فهناك ترى أن لا موضع لتعجب ولا موضع له أيضًا في أن يأذن له إمام دار الهجرة بالفتيا، فيفتي من تلكم السن المبكرة، وصدق رسول الله: «الأئمة من قریش».

رُبَّ ملوم لا ذنب له:

ذكر الثقات من أهل العلم أن هارون الرشيد أو غيره من خلفاء بني العباس، كان يعجبه الحمام واللعب به، وتسامع الناس ذلك عنه فتخطت إليه الهدايا به الحدود من الثغور من كل مكان.

وكان يجلس إلى الخليفة ذات يوم أبو البختری القاضي أو غيره فأحب أن يتقرب إليه بحديث عن رسول الله ﷺ قارف فيه الكذب أقبح ما يكون الكذب وجهًا وأيسر سبيلًا إلى مال كثير من خليفة سخي مسباح فقال القاضي: رويتا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لا سبق إلا في حف أو حافر أو جناح». فراد الرجل - غفر الله له - كلمة جناح ولم تكن في الحديث فأعطاه الرشيد أو غيره جائزة سنية، فلما غادر المجلس أمر بذيح الحمام فقيل له: «وما ذنب الحمام يا أمير المؤمنين؟» قال: «من أجله كذب على رسول الله ﷺ فأنا أكره أن أراه، وليس ينجيني من رؤيته إلا ذبحه. فمضى الناس يقولون كلما انتهى إليهم هذا الحديث: «رب ملوم لا ذنب له».

مسكين أبو هريرة رحمه الله فإنه - بتأوله حسب اجتهاده الأحاديث النبوية - يسر سلوك التأول البعيد أو الكذب الصراح على رسول الله ﷺ.

جوار العلماء حرم:

كان العلامة الجليل فخر الدين الرازي صاحب حلقة في خوارزم يؤمها طلاب المعارف والعلوم من كل مكان. وذات يوم سقطت بالقرب من مجلسه حمامة كان يطاردها جارج ف وقعت قريباً من العالم الجليل منهوكة القوة فريسة الخوف ثم لم تقدر على الطيران، فلما فرغ الإمام من درسه قام فوقف عليها ورق لها ثم أخذها فوضعها في كفه يقيها شدة البرد ثم انصرف، إلى داره، وكان في المجلس الشاعر ابن عنين فقال على البديهة أبياتاً صور فيها هذا المعنى:

|                           |                          |
|---------------------------|--------------------------|
| من أنبأ الورقاء أن جواركم | حرم وأنك ملجأ للخائف     |
| هبطت إليك وقد تدانى حتفها | فحبوتها ببقائها المستأنف |
| ولو أنها تحبى ببال لانتنت | من راحتك بنائل متضاعف    |

المنحة بسوء التصرف محنة:

يروى أصحاب السير أن رجلاً كان يحترف صيد السمك في عصر موسى عليه السلام فكان يعيش من هذه الحرفة مع زوجته وابنته في ضيق شديد، يكر كل صباح إلى البحر تبكير الغراب، حاملاً شبكته على كتف أوهنتها أتعال الحياة، والفقر يصرخ في ثوبه البالي صراخ الجوع والأسى والمرض في وجهه اليائس الحزين.

ولم يكن الرجل يعنيه أمر نفسه، بقدر ما كان يعنيه أمر زوجته وابنته، بالغاً بها أسوأ المدى من شظف العيش وقسوة الحياة، فكان إذا عاد من رحلة صيده بغير صيد، تلقته زوجة سليطة بكل ما تحس المرأة السليطة من التقرع والتوبيخ، في حين تتلقاه ابنته بكل ما في عينيها من دمع وفي قلبها



من رحمة وراثه، على أن دموع ابنته كانت الم لنفسه وأبعث لحزنه من ستائه زوجته بالغة ما بلغت من القسوة وذراية اللسان.

وذات صباح خرج الرجل على عادته إلى البحر، وفيه هو في لطريق إليه أخذ عيناه سواداً فادماً من بعيد، فراح يتبينه وكلّم زادت معالته وضوحاً في عينيه ازداد صدره انشراحاً ومّله قوة ورسوخاً، حتى إذ امتلأت من القادم عيناه، فاض قلبه يقيناً بالفرج بعد الشدة والطمأنينة بعد القلق.

لم يكن القادم سوى نبي الله موسى عليه السلام فكلمها: اقترب من الرجل أسرع إليه، ولشباك بقل على كتفيه، وحياتها المدلاه تكاد تكون قيوداً لقدميه وفي خشوع لبائس وأمل لبائس تصرع إليه أن يسأل له ربه عيشاً أرغد وحياة أسعد، لأن حياة الصيد قد زهقته وشفته مع أسرته، وركبته يشقى الآلام والأسقام. ولا ريب في أن السبي لكرب أدركته للمسكين رقة، مما تبينه في وجهه وجسده من جهد وهزال، وفي عينيه من خشوع ودموع، وأنبياء الله ورسله - في كل زمان ومكان - صاغتهم عناية الله رحمت تسعي على قدمين في دنيا الناس، يلودهم هلاك ويفرع إليهم البائسون البائسون فلفته عليه السلام إلى اللباد بالله والمقة برحمته، ثم وعده أن يسأل الله تعالى له ما يهدأ به بآله وتصلح عليه حاله، فيعيش مع زوجته وابنته في نعمة سابعة وعيش رغيد.

وفياً كانت الشمس تنهياً للمغيب، والصيد في طريفه إلى كوخه حفر الشباك من الصيد مقعم الصدر بأنهم، على إسفاق شديد من لسان زوجته سليطة ودموع ابنة كسيره، إذا ببى الله موسى ينظر إليه من بعيد وعلى سفتيه ابتسامه شرق بها في وجه الصياد البائس، أمل في فضل الله عظم. وما إن أبصر ذلك المسكين نبي الله يتسم له، حتى أسرع إليه فألقمه

أذنه، فألقى إليه بضع كلمات أنسته شبكته فرماها ضيقاً بها وزهداً فيها وملاً من طول عشتها، ثم مضى يوج في سيره جهة الكوخ الحثير الذي قدر أنه سيصبح عن قريب قيد النواظر وأمنية المتنى وحديث الناس.

لقد قال له موسى: إن الله قد استجاب لك ثلاث دعوات. فمهما دعوت بهن، فإن الله معطيك ما تحب إلا أن تؤثر الشر على الخير والباطل على الحق.

ولو كان لإنسان أن يجن من الفرح نبأ صادق، لكان ذلكم الصياد أحق خلق الله بأعنف ألوان الجنون. ذلك أنه يستطيع بدعواته الثلاث أن يكون أغنى وأقوى وأسعد رجل في الدنيا، ليس فوق سلطانه سلطان إلا الله رب العالمين. ولكن الله تعالى حفظ للرجل عقله لكي يمضي فيه قضاؤه، فأخذ يفكر في أمثل الطرق التي يسلكها لإلقاء هذا الخبر إلى أسرة مجهودة مكدودة لا تتناول إلى أبعد من وجبة عشاء من أحقر مطعم في أصغر سوق ثم تنام، لتستقبل الشقاء مع صباح جديد.

فلما أقبل الرجل صاحته به زوجته كعادتها في صوت عال ساخر: كنت تحبنا قبل اليوم بالسّمك أو الشبك، وقد جئتنا الليلة ولا سمك ولا شبك.

وقالت الابنة البارة العطوف: إليك عن أبي يا أماء، حتى إذا استراح من مشوار طويل ويوم شاق يائس رحنا ندير الأمر في هدوء، والمرء يعجز لا المحالة، وربنا لا يتخلى عن عباده الصابرين.

قال الصياد السعيد في لغة الواثق ولهجة الوقور: جئكم من عند نبي الله موسى نبأ سعيد يقين، ثلاث دعوات مستجابات، تفضلت بهن علينا عناية الله ورحمته لقاء لياذنا ولجوئنا إليه وثقتنا فيه. وقالت الزوجة الدعوات ثلاث ونحن ثلاث: أنا وأنت وابنتنا، فلي دعوة ولك دعوة وللبن دعوة. ولم يمع

الرجل أن يرفض اقتراح زوجته إما خشية من سلاطتها وإما إثارة لمرضاة ابنته التي كان يحبها من كل قلبه ويعطف عليها من أعماق نفسه.

وكان الخير لهذه الأسرة - وقد منحها الله من جميل عنايته ما كان يستعصى على الأحلام - أن تشكر نعمة الله على ما هبأ لها من الخير، وأن تستعرض شئونها وما تحتاج إليه لتتصرف على هدى ذلك فيما تستقبله من أيام، غير أن سوء النظر وتعجل الاستمتاع بشهوات الحياة من مال وجاه وسلطان قضى هذه الأسرة بالحنة التي لا تطاق والبلاء الذي لا يحتمل. فقد آثرت المرأة في تطاول الوضع إذا وجد سبيل الرفعة أن تكون فتنة المدينة وهوى الأفئدة وحديث المجال، فتوجهت بدعوتها إلى الله أن يجعلها أجمل امرأة، واستجاب الله دعوتها فعدت كما أحبت أن تكون. ولم يكن ممكناً أن تظل كما كانت في الكوخ، فتركت زوجها وابنتها إلى حيث يتوافر لها ما تشاء متى تشاء كيف تشاء من متارف العيش ومناعم الحياة. وأحسن الزوج المهانة تحيط به والغيرة تستل نفسه من بين جنبيه فتوجه بدعوته إلى الله أن يمسح زوجته قردة في الكوخ الذي خرجت منه غير مبالية سخط ولا إنكار منكر. واستجاب الله الدعوة فإذا هي كما أحب لها زوجها أن تكون. ولم تحتمل البنت أن ترى أمها في هذه الصورة القبيحة فتوجهت بدعوتها إلى الله أن يعيد أمها كما كانت. واستجاب الله دعوتها فعادت كما كانت رهينة كوخ وزوجة صياد.

وكذلك تحولت المنحة الإلهية الجلييلة - بسوء التصرف وحماقة الاستبداد - حنة ثقيلة لا تطاق.

كذلك يروى القصص هذه القصة في كثير من الكتب، ومهما يكن الأمر فيها صدقاً أو كذباً، وحقيقة أو مثلاً، فإن المغرور واضح والعبرة مسلمة عند الذين فقهوا أحداث التاريخ.

## الفيران والدجاج:

كان رؤية بن العجاج شاعر فحلاً، وكان يأكل الفيران<sup>(١)</sup>. فإذا سئل في ذلك قال: هي والله أنظف من دواجنكم ودجاجكم اللاتي تأكل القاذورات. وهو يأكل الفأر إلا نقي البرّ ولباب الطعام.

وهذه الحجة مسلمة عند أهل الفقه فقد كان رسول الله ﷺ لا يأكل الدجاج المخلّى حتى يحبس له أياماً ثم يذبح، وكان ابن عمر كذلك يفعل وهو شديد الحرص على القدوة برسول الله. فاحتجاج رؤية لإيثاره الفأر على الدجاج المخلّى، احتجاج مسلم، له سند مما كان يفعل رسول الله وأصحابه.

## الجراد غذاء ودواء:

روى القاضي أبو القاسم التنوخي<sup>(٢)</sup>، أن شاباً من أهل اليسار أصابه مرض الاستسقاء، فيس أهل من حياته. ولم يستطع الأطباء على كثرتهم وكره ما وصفوا له من دواء أن يردوا إليه عاقبته، فلما استولى عليه اليأس توسل إلى أهله أن يدعوه يتزود من الدنيا قبل الرحيل، وحرص على أن يأكل كل ما يشتهي دون نظر إلى الحمية التي فرضت عليه، فأباحوا له أن يأكل ما يريد لا يمنعونه شيئاً يشتهيه. وذات يوم اجتاز به رجل يبيع جراداً مطبوخاً، فأجلسه واشترى منه عشرة أرطال ثم أكلها بأسرها. فلما كان بعد ساعة، انحل طبعه وتواتر قيامه حتى قام في ثلاثة أيام من مائة مجلس، وضعف وكاد يتلف، ويش من أهله. وفجأة انقطع قيامه وقد زال كل ما كان في جوفه، وعادت بطنه إلى حاله من الصحة، وثابت إليه قوته فبرأ، وخرج على قدميه في اليوم الخامس يتصرف في حوائجه كسابق عهده.

(١) يعنى فيران القبطان لا فيران البيرت.

(٢) كتاب النرج بعد الشدة.

ومرّ به أحد الأطباء الذين كانوا يتولون علاجه، فعجب من أمره ورعه ما رأى من دلائل صحته، فسأله عن الخبر، فلما عرفه إياه قال: إن هذا ليس من شأن الحراد، ولا بد أن يكون في هذا الحراد خاصية رائدة عليه، فأحب أن تدلني على من باعك هذا الحراد، فما زائوا في طلبه حتى اجتاز بالباب مرة ثانية وهم يرقبونه. فلما راه الطبيب سأله: ممن اشتريت هذا الحراد؟ فقال: أنا لا أشتريه ولكني أصيده، وأجمع منه شيئاً كثيراً، فأطبخه وأبيعه. فسأله الطبيب: هذا دينار لك، على أن تدع شغلك وتجيء معي إلى ذلك الموضع. فخرجا معاً، وعاد الطبيب من العد فذكر أنه رأى ذلك الحراد يرعى في صحراء ذات حشائش هي دواء الاستسقاء، فإذا دفع إلى العليل منها دون درهم أسهله إسهالاً يزيل الاستسقاء، ولكن لا يؤمن من أن ينضب ولا يقف، فرمى قتل الدرب العليل، فالتعلاج بها خطر جداً، ومع أنه مذكور في الكتب لا يكاد يصفه الطبيب لفرط ضرره. فلما وقع الحراد على هذه الحشائش، وانطبخت في معدته، لم ينطح الحراد أيضاً - ضعف فعلها بطيخين اجتماعاً، وقد قدر الله تعالى لهذا العليل أن يتناول هذا الحراد مصادفه، فتناولها وقد تعدلت مقدار ما يدفع طبعه دفعاً قطع بانقطاع لعله قبرا، فهذا من عجائب الاتفاق.

### والحيات أيضاً:

ومن عجيب المصادفات أيضاً ما حدث به أبو علي عمر بن يحيى العلوي الكوفي - رحمه الله - حيث يقول: كنت في بعض حججتي في طريق مكة، فاستسقى رجل كان معنا من أهل الكوفة، وثقل في علته. وسل لأعراب فطاراً من القافلة كان على جمل منه هذا العليل. فافتقده الناس وجرعوا عليه وعلى الفطار، مرجعهم إلى الكوفة.

فلما كان بعد مدة جاءني العليل إلى داري معافي، وسألته عن قصته وسبب عافيته، فقال: إن الأعراب لما سلوا القطار ساقوه إلى محلهم، وكان من المحجة على فراسخ يسيرة. فأنزلوني ولما رأوا صورتي ومبلغ علتي، طرحوني في أواخر بيوتهم، وتقاسموا ما كان في القطار. فكنت أزحف وأتصدق من البيوت ما أكله. فأطعم، حتى تمت الموت، فكنت أدعو الله عز وجل به أو بالعافية. وذات يوم رأيتهم وقد عادوا من ركوبهم فأخرجوا أفاعي قد صادوها، ثم قطعوا رؤوسها وأذناها وشروها وأكلوها. فقلت في نفسي : هؤلاء قوم يأكلون هذه الأفاعي فلا تضرهم بالعادة التي نشأوا عليها، فلعلني إن أكلت منها شيئاً أن أتلغ فأستريح مما أنا فيه. فقلت لبعضهم: أطعمني من هذه الحيات، فرمى إلى بواحدة منها مشوية فيها أرطال، فأكلتها بأسوها وأمعت طلباً للموت، فأخذني نوم عظيم، فانتبهت وقد عرقت عرقاً عظيماً، واندفعت طبيعتي فقممت في بقية يومي وليلتي أكثر من مائة مجلس، إلى أن سقطت طريحاً، وجوفي يجري. فقلت: هذا طريق الموت، وأقبلت أتشهد وأدعو الله عز وجل بالمغفرة. فلما أضاء الصبح، تأملت بطني فإذا هو قد ضم، وزال عنه ما كان به. فقلت: أي شيء ينفعني من هذا وأنا ميت؟ فلما أضحى النهار وانقطع القيام، وجبت صلاة الظهر فلم أحس بقيام، وجعت جوعاً شديداً، فجننت لأزحف على العادة، فوجدت يدي خفيفاً وقوي صالحة. فتحاملت فمشيت فطلبت منهم مأكولاً فأطعموني فقويت، فبت في الليلة الثانية معافي ما أنكر من أمرى شيئاً. فأقمت أياماً إلى أن وثقت من نفسي بأنني إن مشيت نجوت. فأخذت الطريق من بعضهم إلى أن صرت على المحجة فسلكتها إلى الكوفة مشياً على قدمي. وهأنذا بين يديك كما ترائي، فالحمد لله.

### المرأة والصيد:

الصيد من حيث هو لون من ألوان الفروسية، لم يتفرد به الرجل، بل شاركته فيه المرأة، غير أنه في سكان البادية أعظم وأظهر، لمصاقتهم الوحشيات ومنازلتهم إياها، فلا يزال أهل البادية لها ذاكرين ومنها طاعمين. روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» أن حمادًا الراوية قال: أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن أبي ربيعة المخزومي فتذاكرنا العذريين<sup>(١)</sup>، فقال عمر بن أبي ربيعة: كان لي صديق من بني عذرة يقال له الجعد بن مهجع وكان يلقي من الصباية ما لا يحتمله إلا عذري، على أنه كان لا عاهر الخلوة ولا سريع السلوة. وكان يواقي في موسم الحج في كل سنة؛ فإذا رأت<sup>(٢)</sup> عن وقته ترجمت عنه الأخبار، وتوكت<sup>(٣)</sup> له السفار حتى يقدم، فإذا قدم تحدثنا حديث صبيين عاشقين محزونين.. وقد ارتاث على داب عام خبره حتى قدم وافد عذرة فأتيت القوم أشد صاحبي، فإذا غلام يتنفس الصعداء ثم قال: عن أبي السهر تسأل؟ قلت: عنه نشدت، وإياه أردت. قال: هيهات هيهات لقد أصبح والله لا مؤسسًا فيحمل، ولا مرجوًّا فيعمل، فهو - والله - كما يقول الشاعر:

لعمرك ما حبي لأسناء تاركي أعيش ولا أقضى به فأموت

قلت: وما الذي به رحمك الله؟ قال: مثل الذي بك من التهلكة في لضلال، وجر أذيال الحيلة والخسار، كأننا لم نسمعا بجنة أو بنار.

قلت: من أنت يا ابن أخي؟ قال: أنا أخوه. قلت: أما والله ما منعك أن

(١) بنو عذرة.

(٢) ماخري.

(٣) تعرض لي.

تركب طريق أخيك وتسلك ملكه، إلا أنك وإياه كالوشى والبجاد، لا يرقعك ولا ترقعه، ثم صرفت وجه ناقتي وأنا أقول:

|                              |                                |
|------------------------------|--------------------------------|
| أرائحة حجاج عذرة وجهة        | ولما يرح في القوم جعدين مهجع   |
| خليلان نشكوما نلاقى من الهوى | متى ما يقل أسمع وإن قلت يسمع   |
| ألا ليت شعري أى شيء أصابه    | في زفرات هجن ما بين أضلعي      |
| فلا يبعدنك الله خلأً فإبني   | سألقي كما لا قيت في الحب مصرعي |

فلما حجبت وقفت في الموضع الذي كنت أنا وهو نقف فيه من عرفات، فإذا إنسان قد أقبل وقد تغير لونه وساءت هيئته، فما عرفته إلا بناقته، فأقبل حتى خالف بين أعناقهما، فاعتقني وجعل يبكي. فقلت: ما الذي دهاك؟ فقال: برح العذل وطول المطل، ثم أنشأ يقول:

|                         |                         |
|-------------------------|-------------------------|
| لئن كانت عذبة ذات لب    | لقد علمت بأن الحب داء   |
| ألم تر ويحها تغبير جسمي | وأنى لا يفارقتي البكاء  |
| فإني لو تكلفني كلاماً   | لقف الكلم وانكشف الغطاء |
| فإن معاشري ورجال قومي   | حتوفهم الصباة واللقاء   |
| إذا العذرى مات بحتف أنف | فذاك العبد يبيكه الرثاء |

فقلت: يا أبا المسهر، إنها ساعة تضرب إليها أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها، فلو دعوت كنت قمناً أن تظفر بحاجتك، فدعا، حتى إذا دنت الشمس للغروب، وهم الناس بالإفاضة، همهم بشيء فأصغيت له، فسمعته يقول:

يارب كل غدوة وروحة من محرم يشكو الضحى واللوحه  
أنت حسيب الخلق يوم الدوحة



قلت: وما يوم الدوحة؟ قال: والله لأخبرنك ولو لم تسألني.

ثم تيممنا مزدلفة فقال: إني رجل ذو مال ونعم وشاء، وإني خشيت على إيلي التلف، ونصر الغيث<sup>(١)</sup> أرض كلب، فانتجعت أخوالي منهم، فأوسعوا لي عن صدر المجلس، وسقوني جمة الماء، وكنت معهم في خير أحوال. ثم إني عزمت على مرافقة إيلي بماء لهم يقال له الحردان، فركبت فرسي، وعلقت شراياً معي كان أهداه إلي بعض الكلبيين، ثم انطلقت، حتى إذا كنت بين الحمى ومرعى النعم<sup>(٢)</sup>، ورفعت لي دوحة عظيمة، فنزلت عن فرسي وشدته بغصن من أغصانها، وجلست في ظلها. فبينما أنا كذلك إذ سطع غبار من ناحية الحمى، ثم رفعت لي شخص ثلاثاً، ثم تبينت فإذا فارس يطرد مسحلاً<sup>(٣)</sup> وأتانا. فلما قرب مني إذا عليه درع صفراء، وعمامة خز سوداء، وإذا فروع شعره تضرب حصريه. فقلت في نفسي: غلام حديث عهد بعرس أعجلته لذة الصيد فتسوى ثوبه وأخذ ثوب امرأته. فما لبث أن لحق المسحل فصرعه، ثم نثى طعنة للأتان وأقبل وهو يقول:

نطعنهم سلكي ومخلوكة كرك لا من على نابيل<sup>(٤)</sup>

فقلت له: لقد تعبت وأتعبت فرشك، فلو نزلت. فتني رجله فنزل فتشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة، وألقى رمحه، وأقبل حتى جلس فجعل يتحدثني حديثاً ذكرت به قول أبي ذؤيب:

(١) نصر الغيث الأرض - أصحاب الغيث فأحصى.

(٢) عن سبيح الإسلام المروى كلمة النعم إذ أطلقت أورد بها الإبل.

(٣) الحمار لوحش.

(٤) سر لأمري أقيس السلكي. الطعنة لمستقيمة، فإن توجهت يميناً أو شمالاً فهي لمخلوكة والنابيل رمي لنبال الكر. التلف.

وإن حديثاً منك لو تبذلينه جنى النحل في ألبان عوز مطافل<sup>(١)</sup>

فبينما هو كذلك، إذ نكت بالسوط على نيتيه، فما ملكت نفسى أن قبضت على السوط وأنا أقول له: به، فقال: وله؟ قلت: أخاف أن تكسرهما فإنها رقيقتان. فقال: وهما أيضاً عذبتان. ثم رفع الغلام عقيرته يتغنى:

إذا قبل الإنسان آخر يشتهى ثنياه لم يأنم وكان له أجرا  
فلان زاد زاد الله في حسناته مثاقيل يحو الله عنه بها الوزرا

ثم قال: ما هذا الذى تعلقته؟ قلت: شراب أهداه لى بعض أهلك، هل لك فيه؟ قال: أنت وذاك فأتيته به فشرب، وجعلت أنظر إلى عينيه كأنها مهاة قد أضلت ولداً ودعورها قانص، فرأى نظرى، فرفع عقيرته بتغنى:

إن العيون التى فى طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلنا  
يصرعن ذا اللب حى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

فقلت: من أين لك هذا الشعر؟ فقال: وقع رجل منا نحو اليمامة فهو الذى أنشدنيه. ثم قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسى، فرجعت وقد حسر الغلام العمامة عن رأسه، فإذا هو أحسن الناس وجهاً، فقلت: سبحانك اللهم، ما أعظم قدرتك، وأحسن صنعتك. قال: وكيف قلت ذلك؟ قلت: مما راعنى من نور وجهك وبهرنى من جمالك. قال: وما الذى يروعك من حبيس التراب وأكيل الدواب، ثم لا يدرى أينعم بعد ذلك أو يبتئس؟ قلت: بل لا يصنع الله بك إلا خيراً إن شاء الله. ثم قام الغلام إلى فرسه، فلما أقبل برقت لى بارقة من الدرع فإذا ثدى كأنه حق. فقلت: نشدتك الله، أنت رحل أو امرأة؟ فقال: إني والله امرأة تكره العهر وتحب الغزل. قلت: وأنا

واؤه لكذلك. فجلست تحدثنى ما أفقد من أنسها شيئاً، حتى مالت على الدوحة. فاستحسنت وأائه الغدر يا ابن ربيعة وزين في عيني، ولكن الله عصمى، فجلست منها بعيداً، فما لبثت أن انتبهت مذعورة، فلاثت عمامتها، وأخذت رمحها، وجالت في متن فرسها. وقالت: جزاك الله عن الصحبة خيراً. قلت: ألا تزودينى منك زاداً؟ فناولتنى يدها فقبلتها، فشمت منها وأائه المسك المفتوت. ثم قلت: أين الموعد؟ قالت: إن لى إخوة شرساً، وأبا غيوراً. ولأن أسرك، أحب إلى من أن أضرك ثم مضت، فكان وأائه آخر العهد منها إلى يومى هذا. فهى وأائه التى بلغتنى هذا المبلغ. وبكى. فقال ابن أبى ربيعة: فدخلتنى له رقة، وقلت له: لو لم أبلغ حاجتك بمالى، لسعيت فى ذلك حتى أقدر عليه.

فلما انقضى الموسم شددت على ناقتى، وسدً على ناقتة، وحملت غلاماً على بعير، وجعلت عليه قبة آدم حمراء كانت لأبى، وأخذت معى ألف دينار ومطرف<sup>(١)</sup> خز، ثم خرجنا حتى أتينا بلاد كلب، فإذا الشيخ أبو الجارية فى نادى قومه، وإذا هو سيد الحى، وإذا الناس حوله، فوففت على القوم وسلمت؛ فردَّ الشيخ السلام، ثم قال: من الرجل؟ قلت: عمر بن عبد الله ابن أبى ربيعة المغيرة المخزومى. قال الشيخ: المعروف غير المنكر، فما الذى جاء بك؟ قلت: جئت خاطباً. قال: الكفاء والرغبة. قلت: إني لم آت ذلك لنفسى عن غير زهادة فيك، ولا جهالة بشرك، ولكنى أتيت فى حاجة ابن أختكم هذا العذرى، وما هو ذلك. فقال: إنه وأائه لكفاء الحسب رفيع المنصب، غير أن بناتى لا يقعن إلا فى هذا الحى من قريش. فعرف الجزع فى وجهى. فقال: أما إني لصانع بك ما لم أصنع بغيرك... أخيرها.. فهى وم

اختارت. فقلت: والله ما أنصفتي، إذ تختار لغيري، ووليت الخيار لى غيرك. فأومى إلى صاحبي أن دعه يخيّرهما. فأرسل إليها بالخيار وقال: رأيك؟ فقالت: ما كنت لأستبد برأى دون رأى القرشي وما اختار. قال الشيخ: فقد صيرتُ إليك الأمر. قال ابن أبي ربيعة: فحمدت الله جل ذكره، وصليت على محمد ﷺ وقلت: قد زوجتها الجعد بن مهجع، وأصدقها هذه الألف دينار، وجعلت تكرمها العبد والبعير والقبة، وكسوت الشيخ مطرف الخز. وسألته أن يبنى من ليلته، فأرسل إلى أمها فأبت وقالت: أنخرج ابنتي كما تخرج الأمة. قال الشيخ: فعجلّ في جهازها. فما برحت حتى ضربت القبة في وسط المحريم وأهديت إليه ليلاً، وبنت أنا عند الشيخ فلما أصبحت أتيت القبة فصحت بصاحبي فخرج إلى وقد بدا السرور في وجهه. فسألته: كيف كنت بعدى، وكيف هى بعدك؟ فقال لى: لقد والله أبدت لى كثيراً بما كانت تحفّيه عنى يوم لقيتها تحت الدوحة فقلت له: أقم على أهلك بارك الله لك فيهم. ثم انطلقت وأنا أقول:

كفيت أخى العذرى ما كان نابه      وإنى لأعيب النوائب حال  
أما استحسنت منى المكارم والعلا      إذا هجرت، إنى لمالى بذال  
فقال أخى العذرى:

إذا ما أبو الخطاب خلى مكانه      فأف لدنيا ليس من أهلها عمر  
فلاحى فتیان الحجازين بعده      ولا سقيت أرض الحجازين بالمطر

الصدق يبنى عنك لا الوعيد:

حدّث العنبي عن ثقات أشياخه قال:

كنت عند المهاجر بن عبد الله، وإلى اليمامة، فأقى بأعرابي كان معروفاً

بالسرق. فقال له الوالى: أخبرنى عن بعض عجائبك. فقال: كان لى بعير لا يسبق وخيل لا تلحق، فكنت إذا خرجت لا أرجع خائباً أبداً. فخرجت يوماً فاحترشت ضباً فعلقته على قتيى، ثم مررت بخباء فيه عجوز ليس معها غيرها. فقلت. لابد أن يكون هذه العجوز رائحة<sup>(١)</sup> من غنم وابل. فلما أمسيت إذا بإبل وشيخ عظيم البطن شئن الكفين معه عبد أسود. فلما رأى رجب بى. ثم قام إلى ناقة فاحتلبها. وناولى العلبة فشربت ما يشرب الرجل. فتناول الباقي فشربه. ثم احتلب عدة أينق فشرب ألبانهم. ثم نحر حُواراً<sup>(٢)</sup> فطبخه. فأكلت شيئاً. وأكل هو سائرته. ثم حثا كومة من البطحاء فتوسدها. ثم غط غطيظ البكر سد خناقها. فقلت: هذه والله الغنيمة. ثم قمت إلى فحل إبله فخطمته ثم قرنته ببعيرى وصحت به. فأتبعنى الفحل وسائر الإبل فى قطار. فصارت خلفى كأنها جبل ممدود. فمضيت أبادر ثنية بينى وبينها مسيرة ليلة للمسرع. ولم أزل أضرب بعيرى. مرة بيدى ومرة برجلى. حتى طلع الفجر. فأبصرت الثنية وإذا عليها شخص. فلما دوت إذا الشيخ قاعد وقوسه فى حجره. فلما أبصرنى قال: أضيقتنا؟ قلت: نعم. قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا. فأخرج سهماً كأنه لسان كلب. ثم قال: انظره بين أدنى الضب المعلق فى قتيك. ثم رماه فصدع عظمه عن دماغه. ثم قال لى: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيى الأول. قال: انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى. ثم رمى به. فكأنما قدره بيده ثم وضعه باصبعه ثم قال: أرايتك؟ فقلت: أنزل آمناً؟ قال: نعم. فدفعت إليه خطام فحله وقلت: هذه إبلك. لم يذهب منها وبرة. وأنا أتوقع أن يرمينى بسهم يقصد به قلبى.

(١) روح من المرعى

(٢) ولد الناقة من وقت ولادها إلى أن ينظم ويصل - الجمع أحمره

فلما تباعدت قال: أقبل . فأقبلت والله فرقاً من شره لا طمعاً في خيره . فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا عن حاجة . قلت: نعم والله .

قال: فاقرن من هذه الإبل بعيرين وامض لطيتك . ولم أملك أن قلت: أما والله لا أمضى حتى أخبرك عن نفسك، فلا والله ما رأيت أعرابياً قط أشد ضرراً، ولا أعدى رجلاً، ولا أرمى يداً، ولا أكرم عفواً، ولا أسخى نفساً منك . فصرف الشيخ وجهه عنى حياء، ثم قال: خذ ما شئت من الإبل مباركتاً لك فيها .

#### الاستقصاء فرقة:

حدث إبراهيم الشيباني قال: بلغ رجل من أهل الكوفة عن رجل من أهل السلطان، أنه يعرض ضيعة له «بواسط» في مغرم لزم للخليفة، فحمل وكيلاً له على بغل، وأترع له خرّجاً بدنانير قائلاً له: اذهب إلى واسط فابتع الضيعة المعروضة، فإن كفّاك ما في الخرج، وإلا فاكتب إلى أمّك بالمريد . فلما أصرح الرجل عن البيوت، لحق به أعرابي على حمار ومعه قوس وكنانة . فقال له: إلى أين تتوجه؟ فقال: إلى واسط . قال: فهل لك في الصحبة؟ قال: نعم . فسارا حتى فوزا، فعنت لهما طباء، فقال الأعرابي: أتى هذه الطباء أحب إليك، المتقدم منها أم المتأخر، فأزكيه لك؟ قال: المتقدم . فرماه فخرمه بالسهم فاشتويا وأكلا، وقد اغتبط الرجل بصحبة الأعرابي . ثم عنت لهما زمرة من القطا، فقال: أيها تريد فأصرعها لك؟ فأشار إلى واحدة منها، فرماها فأقصدها . ثم اشتويا وأكلا . فلما انقضى طعامها، فوق له الأعرابي سهماً . ثم سأله: أين تريد أن أصيبك؟ فقال له: اتق الله واحفظ زمام الصحبة . قال: لا بد من ذلك . قال: اتق الله ربك، واستيقني، ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالاً . قال: فاخلع ثيابك . فانسלخ من ثيابه ثوباً ثوباً،

حتى بقى مجرداً عرياناً. فقال له: اخلع خفيك. فقال: اتق الله في ودع لي الحفين أتبلغ بها. فإن الرمضاء تحرق قدمي. قال: لا بد من ذلك. وكان يليس حمين مطابقين، فلما تناول الخف ليخلعه ذكر خنجرًا كان معه فيه، فاستخرجه فضرب به في صدره فشقه إلى عاتقه وهو يقول: الاستقصاء فرقة، فذهبت مثلاً. وكان هذا الأعرابي من رماة الحدق، وهم قوم من طيئ أو من لؤبة، عُرِفوا بالرماية.

### الصائد يتخيل والعالم يخترع:

من الأقوال المأثورة أن أحلام الأُمس حقائق الغد فما كان يبدو على ألسنة الرواة خيالاً غالباً، قد أصبح على أيدي العلماء حقيقة وقعة. وإذا كان لا بد من منال يتقرر به صدق هذا القول المأثور، فإنك واجد في سبي لكتب العربية التي عنت بالآداب والعلوم والفنون، نوادر وملحاً قصد بها أسلافنا تنشيط القارئ حتى لا يدركه الملل فيصرفه عن النظر فيما احتوته كتبهم من الجذ الخالص والحكم المسلمة. ومن ذلك فصل عقده المؤلفون لتكاذب الأعراب وفيه أن أعرابيين قال أحدهما لصاحبه: هلم نتكاذب، وأهل الندي شاهدون، فأينا حكموا له، فهو الصريح الذي لم تشنه هجنة، ولم تشب فصاحته عجمة، على أن تبدأ أنت وأثنى أنا. قال: نعم. قال: خرجت ذات صباح ميكراً تبيكر الغراب وتحتي فرس يسبق وفد الريح. وفي يدي سيف أستله من الغمد فتغفر المنايا أفواهها. ثم نظرت في الأفق البعيد، فإذا قطعة من الليل لا تزال قائمة فيه لم تنجب، فركضت إليها فرسي وحملت عليها بسيفي حتى انجابت وخلص من ظلمة الليل بياض النهار وتعجب انقوم مما سمعوا حتى أغرقوا في الضحك مما غلا الرجل في خياله، وإن كانوا قد استأسروا لفصاحته ومحسن بيانه.

قال الآخر: أما أنا، فقد كنت مغرمًا بالطباء أتحين وقت صيدها ثم أخرج إليها. فحينئذ اصطادها بالفريضة. وحينئذ بالحضر خلفها حتى أخذ بقرونها وحينئذ بالقوس أرميها عنها فأذكيها

وذاث يوم سنحت لى ظبية. حتى إذا ظننت أننى استمكنت منها، رميت، فإذا هى تنحرف ذات اليمين، فينحرف السهم إليها، فتتحرف الظبية ذات الشمال فينحرف السهم إليها، فتنب الظبية فينب السهم، فتسف فيسف، وما زال بها حتى صرعاها.

كان هذا منذ مئات السنين خيالاً، ولعله كان فى تقدير بعض الناس خيالاً سخيفاً، لشدة ما كان يستعصى على التصور ويتأبى على الوقوع. غير أن الذين شهدوا الحرب العالمية الثانية رأوا هذا الخيال الغالى يتحول إلى حقيقة علمية واقعة فى دنيا الحرب، إذ رأوا العلم المغطس فى البحر يتبع البوارج الحربية والسفن التجارية، فيميل معها حيث مالت، ويتعرج معها كيفما تعرجت، ولا يزال يلاحقها فى مختلف مساراتها حتى يصيها.

وكذلك الصاروخ المغطس فى الجو، يتبع الطائرات فى أرفع آفاقها، حتى يسقطها. وربما تكشف الأيام - فى قابل بعيد أو قريب - ما لا يتسع له تصور، ولا يسخف معه خيال، مها كان مفرقاً فى أبواب الأوهام. وهكذا تصدق الكلمة المأثورة: أحلام الأمس حقائق الغد.

الناس هم الناس:

ذكر العالم المصرى الجليل «القلقشندى» البيغاء فقال: هى طائر أخضر اللون فى قدر الحمام تحاكى ما تسمعه من لفظ، وهى دمنة الأخلاق ناقبة الفهم، ذات قدرة على حكاية الأصوات وقبول التلقين. والملوك والأكابر يتخذونها لتنم لهم بما تسمع.



وأن حين تقرأ هذا الكلمات، مستعرضًا ما يحدث في زماننا هذا من ظمأ الحكام إلى تسقط أخبار الناس وتتبع عوراتهم، لا تملك أن تدفع عن نفسك خواطر تتوالت إلى ذهنك، تنعقد بها بين الماضي والحاضر موارنة تتلخص نتائجها في أمرين:

أحدهما : أن التجسس داء قديم وإن يكن بعضه مشروعًا لأنه يستهدف حماية البلاد، وبعضه غير مشروع لأنه يستهدف إرواء أحقاد تنلظى في صدور فرد أو جماعة تبتغي هتك الأستار وفضح الأسرار، وقد بدأ التجسس منذ أقدم العصور ساذجًا محدودًا، بمنزلة استخدام البيغاء التي أشار إليها القلقشندي. ثم مضى بخطى واسعة إلى غايته، خفى المعالم نفاذًا، حتى بلغ به العلم أبعد الغايات.

وثانيهما: أن التقدم العلمي - محللاً عن قيود الخلق والمروءة - أصبح محبة يستعاذ بالله منها، وقد كان محبة يبتغي فضل الله تعالى فيها. ذلك أن عبقرية العلماء استطاعت أن تخلق بيغاوات آلية، قادرة على حفظ الكلمات وحكايتها، وتلك هي أشرطة التسجيل المعروفة وأجهزة الإرسال الدقيقة التي يمكن وضعها في أررار الأقمصه، أو دبابيس أربطة العنق أو ساعات اليد وما إلى ذلك، فإذا الإنسان مصاحب بها في كل مكان يحل فيه، حاليًا بعمله في مكتبه أو بزوجته في مخدعه، أو بربه في مصلاه شاكيًا ظلم ظالم أو عدوان غاصب لمال أو متاع، وصارعًا إليه تعالى أن يكفيه سر الظلمة المسلطين. فإذا البيغاوات الآلية، قابضة في أشرطة التسجيل وأجهزته، تحصى عليه كل كلمة يقولها في خلواته حريصًا على ألا تهتك عنها الأستار أو تكشف فيها الأسرار.

ولا يزال قومتا في مصر وفي غيرها يذكرون أن السيد الرئيس «محمد أنور السادات» قصد ذات يوم في موكبته الرسمي إلى وزارة الداخلية لكي يشهد بنفسه ببغاوات العلم الحديث قابعة ألوف الأشرطة التي كانت تسجل ما يفضح أسراراً وهتك أستاراً ويقطع وشائج ويدمر بيوتاً ويفضح أعراضاً. وفي حفائر في فناء وزارة الداخلية أُلقيت هذه الأشرطة الآتمة ثم أشعلت فيها النار شديدة القرم إليها، باللغة المحرص على التهامها.

وليس يعلم أحد ماذا كانت تحمل تلك الأشرطة من جرائم وآثام لو لم يبتدرها بالنار الرئيس غيرة على أعراض المواطنين التي هي عرض مصر والأمة العربية جمعاء، فعرف الله له هذا الصنيع.

إن مع العسر يسرا:

ومن البيغاء نوع يدعى «أبا زريق» وربما أطلقوا عليه «الزرياب» طائر شديد الإلف للناس، سريع الإدراك لكل ما يلقي عليه، ثم هو إذا درب كان أحسن من البيغاء وأنفس، فجاء منطقته واضحاً، وحروفه مبنية مفصلة تفصيلاً، حتى ليظن سامعه أن الذي يتكلم إنما هو إنسان فصيح، بخلاف البيغاء المعروفة فإنها ليست بهذه المنزلة من الفصاحة والبيان.

ومن طريف ما يحكى في أمر «أبي زريق» هذا ما ذكره صاحب منطق الطير في شأنه، فقد خرج رجل من بغداد كان يتجر في البيغاوا وكان كل ما معه من مال أربعمائة درهم، لا يملك سواها من دنيا بغداد الزاخرة بالمال والجاه والترف. وفيها هو في طريقه إلى غير غاية، والدنيا في عينيه أضيق من كفة الحاء أبصر صياداً معه عدة من فراخ «أبي زريق» أعجبه ما رآه من فصاحة منطقها وحسن بيانها، فاشتراها منه بكل ما معه من مال، راجياً أن يكون بذلك رجلاً معدوداً من أغنياء بغداد إذا قدّر لهذه الفراخ من يعرف

قيمتها فيشترها منه، ورجع الرجل إلى بغداد فعلقها في دكانه في أفاص  
حميلة تزيد في قيمتها عند الحراص على اقتائها. وهبت عليها ذات ليلة ريح  
باردة فماتت كلها إلا واحداً منها كان أصغرهما حجاً وأضعفها قوة..  
ولا ريب أن محنة الرجل بذلك كانت بالغة غاية المدى، فبات في دكانه بعيداً  
عن زوجه وولده مكروباً مهموماً مغموماً، لم تغمض عيناه طول ليلة وهو يبتهل  
إلى الله تعالى: «يا غياث المستغيثين أغثنى»، ثم غفا إغفاءة بعد جهد جاهد  
وحزن بالغ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذى نجا من الموت على ضعف صحته  
وضآلة حجمه يصيح في لسان فصيح: «يا غياث المستغيثين أغثنى».

وما إن سمع الرجل هذه الاستغاثة حتى تضاعف همه واستحكم ألمه، وقد  
كان خليقاً أن يسرى عنه، لأنه تصور أن بقية الأفراخ لو كانت قد بقيت  
له، لا استطاع أن يبيعها بما يردّ عليه الدراهم الأربعمئة التى أنفقها ثمناً لها.  
وكان هذا الخاطر يكاد يلتهم في صدره كلها أبصر البغداديين يتنادون إلى  
رؤية الطائر العجيب والاستماع إليه، فتسيل إليه سكك المدينة وشوارعها  
زرافات ووحيداً بالنساء والرجال والصبايا والصبيان والجوارى والفلمان بغير  
فرق بين عابد وشاطر ومؤمن وملحد، وقاض على بغلة مسرجة ملجمة وصوفى  
في مرقعة سنخة زنبجة<sup>(١)</sup>. وقد احتشد الجميع أمام الدكان واتخذوا من الطائر  
العجيب إماماً لهم يرددون معه: «يا غياث المستغيثين اغثننا».

لقد كانت بغداد آنثى قد أصابها داء الأُمم حين تسود الأطماع وتتنكس  
الأوضاع وتتكاثر الفتن، ينفخ في نارها الحرص على الجاه والإبقاء على  
السلطان، فبات الترف في المطعم والمشرب والسكن والملبس هو المثل الأعلى  
الذى يتناول إليه كل بغدادى وبغدادية.

(١) تخيرت رانحتها.

والناس حين ينتهى بهم الترف وانحلال الثقة بين الحاكم والمحكوم، إلى هذه الصورة اليائسة اليائسة، تتفرق بهم السبل، فمنهم من ينطوى على نفسه لا يفعل شيئاً، ومنهم من يغامر لا يبال شيئاً، ومنهم من يجارى ليلغ شيئاً أى شىء، ومنهم من يتصوف صادقاً أو كاذباً ومحققاً أو مبطلاً، يبتغى من ذلك وقد خسر الدنيا أنه يربح الآخرة إن كان مؤمناً بها، أو أن يأمن بطش الجبارين إن كان مزعزع العقيدة سقيم الوجدان.

وفى الناس على هذه الصورة العجيبة، يختلط فيها الكبار والصغار دون فارق من سن أو مرتبة، مرت جارية الملكة وجوارى الملوك يومئذ كان لهن شأن، فكن قيد النواظر إذا برزن، ومهفى الأسماع إذا تحدثن. وأشارت الجارية إلى صاحب الدكان، ثم قالت له: كم من المال تريد ثمناً لطاثرتك هذا؟ فقال: ما تشاء سيدى مشكورة مقدورة. فقالت: على به، وسأبعث إليك بألف دينار.

وكاد الرجل يجن من القرح. لأنه لم يكن يحلم بألف درهم فضلاً عن ألف دينار. فرضى نفساً وقر عيناً بما رزقه الله. ولم يكن يكف بعد ذلك عن هذه المناجاة «يا غياث المستغيثين أغثنى».

### الكناية والصيد:

الكناية أن تتكلم بالشىء، وأنت تريد غيره مما هو منه بسبيل، تبتغى بذلك صيانة لسانك عما يستهجن التصريح به، وهى فن من البيان دقيق المسلك، لا ينفذ إليه إلا كل بصير بخارج الكلام ومداخله، ولا يحذقه ظافراً به إلا من كان سبطاً مرتاضاً، لا كزاً ريشاً كما يقول الإمام ابن جنى - رحمه الله -.

ومن أجمل الكنايات في باب الصيد قول محمد بن عمير التميمي لشريك النعمري وعلى يده صقر: ليس في الجوارح أحب إليّ من الباري. فأجابه شريك النعمري: إذا كان الذي تحبه من البراة يصيد القطا.

فقد كنى كلا الرجلين كناية أبعدته عن الإفحاش في القول، مع بلوغ كل منهما غاية ما تريد من مساءة الآخر، ثم خرجا من هذه المعركة الكلامية متكافئين وقد نال كلاهما من صاحبه ما أراد.

ووجه ذلك أن الشاعر جريراً، كان قد هجا الراعي النعمري بقوله:

أنا البازي المدل على غير      أتيح من الساء لها انصبا

إذا علقت محالبه بقرن      أصاب القلب أو هتك الحجابا

فعض الطرف إنك من غير      فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فها هنا - كما ترى - هجاء مقذع، وقول فاحش، يركب بالخزى والعار كل غيري، وقد كنى التميمي عن المحش في هذا الشعر بكلمته: ليس في الجوارح أحب إليّ من الباري.

وأما قول شريك: إذا كان الذي تحبه من البراة يصيد القطا، فإنه قد جمع المعاني التي تسوء التميمي وتركب به أيضاً الخزى والعار الذي تسود منه وجوه وتضيق به صدور. ووجه ذلك أن الشاعر الطرماح، كان قد هجا تميمًا فقال:

قيم بطرق اللؤم هدى من القطا      فلو سلكت سبل المكارم ضلت

أرى ليليل يحلوه لهار ولا أرى      جلال المخازي عن تميم تجلت

فها هنا أيضاً كما ترى هجاء مقذع وفحش فاحش يركب بالخزى والعار كل تميمي. وقد كنى النعمري عن الفحش في هذا الشعر بكلمته: إذا كان لذي تحبه من البراة يصيد القطا.

على أن من الكنايات ما يكون بغير كلام، في شعر يروى أو قول يؤثر، وإنما يكون فعلاً ظاهره كرم محض وباطنه سم زعاف. فقد روى الرواة أن جماعة من خاصة أمير من الأمراء اجتمعوا على مائدته، زاخرة بكل ما تشتهيہ الأنفس وتلذه الأعين. وكان على المائدة عيمى مقدور ممن اصطفاهم الأمير لجلسه وطعامه.

وفيا كان الرجل مقبلاً على طعامه مستمتعاً به، إذا رجل يمد يده إليه بقطاة مشوية، وكأنه يكرمه بهذا الصنيع. ولكن التيمى صرخ من الغيظ قائلاً للأمير: أيهان جليڪ على مائدتك؟ فسأله الأمير: عن أية إهانة تتحدث؟ قال: ذلك الرجل يمد إلى يده بهذه القطاة المشوية، والقطا المشوى مئى قريب وكثير، فهو لم يرد إلا قول الشاعر:

تيم بطرق اللؤم أهدى من القطا      فلو سلكت سبل المكارم ضلت

ولم يسع القوم بعد أن فهموا معنى الكناية الخرساء إلا أن يضحكوا ملء أسداقهم، ثم أن يأكلوا بملء أفواههم، إذ كانت هذه النادرة من أحسن شيء فى مشهيات الطعام.

ومن الكنايات الرائعة - والفرس وسيلة صيد - ما رواه أبو بكر ابن دريد من أنه عُرض على معاوية بن أبى سفيان رحمه الله فرس، وكان معه عبد الله بن الحكم بن أبى العاص، فسأله معاوية: كيف ترى هذا الفرس يا أبا مطرف؟ قال: أراه أجش هزماً. يعرض بمعاوية فى شعر كان قد قاله فيه النجاشى الشاعر يعيره بالفرار أيام صفين وهو قوله:

ونجى ابن حرب سايح ذو علالة      أجش هزيم والرماح دوانى  
إذا قلت أطراف الرماح تنوشه      مرته له الساقان والقدمان

وهو على ما ترى هجاء مقذع، والتعريض به لا يطيقه ذو سلطان مها كانت قدرته على الصبر والاحتمال. ولذلك أجاه معاوية إجابته أشد لدعاً وأخلد سمة فقال له: أجل يا عبد الله ولكنه لا يطلع على الكنائس. وكان عبد الله هذا يتهم بنساء إخوته. فكان هذا التعريض أقتل للمروءة من ذلك.

ولذلك قال عبد لمعاوية: ما استوجبت منك هذا الجواب كله يا أمير المؤمنين وكان معاوية أحسن أنه قد جاوز ما عرف عنه وله من الحلم وضبط النفس فقال: يا عبد الله، كتمها على، وقد عوضتك منها عشرين ألفاً.

ومن الكتابات المعجبة ما يروى من حوار بين عبد الله بن ثعلبة المحارب وبين عيد الملك بن يزيد الهلالي. فقد دخل عبد الله على عيد الملك وهو يومئذ وال على أرمينية فقال له: ماذا لقينا الليلة من شيوخ محارب، منعونا لنوم بلغظهم وضوضاتهم، يشير بذلك إلى قول الشاعر في هجائهم:

تكش بلا شيء سيوخ محارب وما خلته كانت تريش ولا تبرى  
ضفادع في ظلها ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

فأجابه عيد الله المحارب قائلاً: أصلح الله الأمير، إنهم أصلوا الليلة برقعا، يشير بذلك إلى قول الشاعر يهجو الأمير وقومه:

لكل هلالى من اللؤم برقع ولا بن يزيد برقع وجلال

ومن أكرم كتابات هذا الباب - والبعر وسيلة صيد - سؤال وجواب بين رسول الله ﷺ وبين خوات بن جبير الأنصارى. وقد كان خوات في الجاهلية بدع جملة غير مقيد فيشرده، فيدور على البيوت يسأل عن جملة، وإنما كان يريد بذلك مجالسة النساء ومحادثتهن، وله في ذلك قصص كثيرة رواها صاحب الإصابة، وابن عبد البر في تراجم الصحابة. فكان رسول الله إذا

لقى خواتاً يداعبه - وما أكثر ما كان يداعب أصحابه - فيقول له: ما فعل جملك ياخوات؟ فيقول خوات: عقله الإسلام يا رسول الله. يعنى بذلك أن الإسلام قد منعه ما كان يأتيه في الجاهلية. وأنه قد وقف باعتناقه الإسلام عند حدود الله. وهى على ما ترى كناية بلغت الغاية في صدق الأداء وحسن البيان.

ورسول الله ﷺ لم يكن يواجه أحداً بما يسوؤه، فكان كثيراً ما يكنى. ومن أشرف كنياته «إياكم وخضراء الدمن» فالدمن جمع دمنة، وهى المذبلة ومراث الدواب، تنبت نباتاً يرف بالحياة الدافقة والخضرة المعجبة، وقد كنى صلوات الله عليه بذلك عن المرأة الحسناء فى المنبت السوء.

وكتاب الله - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - قد سلك باب الكناية فى أكثر من موضع من مثل قوله تعالى: ﴿وما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة، كانا يأكلان الطعام﴾ فكنى جل ثناؤه بأكلها الطعام عن إتيانها بيوت الخلاء.

ومن أحسن ما يستدل به على أن الكناية بالمنزلة الرفيعة فى لغة القرآن ما ذكره أهل التأويل فى الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِاللُّغُو مَرُّوا كَرَامًا﴾ فاللغو سقط القول، والقرآن سُمى التعبير عنه كراماً. يعنى جل ثناؤه أن عباد الرحمن الذين خلعت عليهم الآيات الشريفة من سورة الفرقان أجلُّ الأوصاف وأجملها، إذا عبروا عن معنى يستهجنون لفظه تركوا التصريح به إلى الكناية عنه، تنزهاً عن اللغو وترفعاً عن الإسفاف.

فذلك هو نهج القرآن، وذلك هو نهج النبوة، وذلك هو نهج الذين يطيب لهم أن يتخذوا قدوتهم الحسنة من الكتاب الكريم والنبي العظيم.



## الخاتمة

أما بعد، فقد آن أن نستريح ونريح بعد هذا المشوار الطويل بين صحائف الكتاب، راجين أن يكون ما ألمنا به في شتى أبواب المعارف نافعا للذين يطلبون العلم حراصا عليه.

ولست أزعم لنفسي أنني في هذا الذي كتب في هذا الكتاب، كنت بعيد الشأو وسيع الخطو لم يسبقني إليه سابق ولا يلحقني فيه لاحق، فذلك زعم لا تنهض به حجة ولا يجد السبيل إليه برهان. وحسبي أنني كتبت ما أظن أن مقتصدا لا يستغنى عنه ولا مجتهدا يضيق به.

على أن أشرف الغايات التي تحرّيتها من جمعه وتأليفه، إنما هي تبيان أن لإسلام ليس ديناً بالمعنى الذي جرى به العرف وألفه عامة الناس، ولكنه حضارة شاملة كاملة تنتظم جميع شئون الحياة وتنتظر إلى الدنيا على أنها مطية للآخرة، فتنناول شئون الدين بروح الدنيا وشئون الدنيا بروح الدين.

والله من وراء القصد بيده الخير وله الحمد في الأولى وفي الآخرة، وله الحمد في كل حال، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

كتبه الفقير إلى ربه القدير أحمد حسن الباقوري. وكان الفراغ من كتابته ومراجعته وتعليق حواشيه في يوم الخميس الخامس من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، موافقا الخامس من يوليه

سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف من ميلاد المسيح. وذلك في مصر الجديدة  
من ضواحي القاهرة حرسها الله تعالى وجعلها دائماً معاذ العروبة وملاذ  
الإسلام.

أحمد حسن الباقوري



## مراجع الكتاب

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - التوراة.
- ٣ - تفسير الفخر الرازى.
- ٤ - تفسير الكشاف.
- ٥ - تفسير القرطبي.
- ٦ - صحيح البخارى.
- ٧ - صحيح مسلم.
- ٨ - جامع الأصول من حديث الرسول.
- ٩ - لسان العرب.
- ١٠ - أساس البلاغة.
- ١١ - القاموس المحيط.
- ١٢ - تاج العروس.
- ١٣ - المعجم الوسيط.
- ١٤ - الخصائص، لابن جنى.
- ١٥ - مذكرات الشيخ السكندرى فى فقه اللغة.
- ١٦ - سيرة ابن هشام.
- ١٧ - الروض الأنف، للسهيلى.
- ١٨ - السيرة الحلبية.
- ١٩ - البداية والنهاية، لابن كثير.

- ٢٠ - الأغاني، لأبي الفرج الاصفهاني.
- ٢١ - الميسر والقдах، لابن قتيبة.
- ٢٢ - ديوان المعاني، لابن قتيبة.
- ٢٣ - ديوان علي بن الجهم.
- ٢٤ - ديوان امرئ القيس.
- ٢٥ - المعلقات.
- ٢٦ - ديوان الحماسة، شرح التبريزي.
- ٢٧ - ديوان الراعي النيمري، للحاني.
- ٢٨ - كتاب الفرج بعد الشدة.
- ٢٩ - شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد.
- ٣٠ - ديوان الشهاخ بن ضرار.
- ٣١ - ديوان حسان بن ثابت، تعليق وليد عرفات.
- ٣٢ - مع الله في النساء، للدكتور أحمد زكي.
- ٣٣ - في سبيل موسوعة علمية، للدكتور أحمد زكي.
- ٣٤ - الحيوان، لتجاحظ.
- ٣٥ - حياة الحيوان الكبرى، للدميري.
- ٣٦ - صبح الأعشى، للقلقشندي.
- ٣٧ - العقد نفريد، لابن عبد ربه.
- ٣٨ - نهاية الأرب، للنويري.
- ٣٩ - القوس العذراء، لمحمود شاكر.
- ٤٠ - البيرة، لنبياز العزيز بالله الفاطمي.
- ٤١ - فجر الإسلام، لأحمد أمين.
- ٤٢ - كتاب السلوك، للمقريزي.

- ٤٣ - إغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقریزی.
- ٤٤ - النجوم الزاهرة، لابن تغری بردی.
- ٤٥ - الإفادة والاعتبار، لعبد اللطیف البغدادی.
- ٤٦ - معجم البغوی.
- ٤٧ - دلائل النبوة، لأبی نعیم الأصفهانی.
- ٤٨ - حقائق الإسلام وأباطیل خصومه، للعقاد.
- ٤٩ - أبو الأنبياء، للعقاد.
- ٥٠ - دیوان المتنبی.
- ٥١ - الشوقيات، لأحمد شوقی.
- ٥٢ - الموسوعة العربية.
- ٥٣ - انتصار الحضارة، هنری بریستد.
- ٥٤ - قصة الحضارة، ول دیورانت.
- ٥٥ - معالم تاریخ الإنسانية، ولز.
- ٥٦ - شمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكر.
- ٥٧ - حضارة العرب، جوستاف لوبون.